فــوزى شـعـبـان

مكائد النساء

فى حياة الرسل و الأنبياء

دار الأحمدى للنشر

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٢٣
ترخيص رقم : (٧١)

مكائد النساء

فى حياة الرسل والأنبياء

فوزى شعبان

دار الأحمدى للنشر

دار الأحمدي للنشر
القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت
تليفاكس : ٥٧٧٠٦٢٥ / ٠٢
المنيا : ٧٨ ش طه حسين
تليفاكس : ٣٤٧٨٠٢ / ٠٨٦

مكائد النساء في حياة الرسل والأنبياء

تأليف : فوزي شعبان

الطبعة الأولى : يناير ٢٠٠١
رقم الإيداع : ١٣٦٦٤ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولي : 977-5887-33-X

تصميم الغلاف : كامل جرافيك ـ القاهرة

بدلا من الإهداء

هذا الكتاب ليس ضد المرأة .. أنما هو معها .. حتى آخر " نفس " .. فى حياة الرجل

فوزى شعبان

تقـــديـــــم

آدم وحواء ..
من الجنة إلى أكياس البلاستك !!

منذ أن أخرجت حواء آدم من الجنة إلـــى الأرض وحتـــى أخرجتـــه مؤخراً من بيته إلى الآخرة داخل أكياس من البلاستيك قطعا صغـيرة .. جرت حكايات وأحداث طويلة عبر كل هذه السنين .. وقامت خلافـــات ومشاحنات بينهما لم يهدأ أوارها بعد ولم تغير عزيمتها ومازالت مشتعلة .. قد تبدو أحياناً هادئة خافتة .. وأحيانا مستعدة .. وفى أحيان أخـــرى يطفح من بين ثناياها دخان كثيف ينبئ عما تحتها من وهج ..

وفى جميع الأحوال .. هى نيران غيره أو شوق أو حب أو كـــره .. وهذا الأخير قد يخرج عن نطاق بحثنا فى هذا الكتاب .. وذلك أن الكرة نتاج حقد وإفراز نفوس مريضة ولم تكن حواء فى عمومـــــها وطـــوال سنوات عمرها تحمل هذا الكره إلا مرغمة أو مكرهة أو من قلة حيلـــة لديها ..

فقد خلقت حواء لتكون سكناً ومستقراً للرجل .. ولن يخلـــق الله عـــز وجل كائناً من ضلع الرجل ليكون سبب شقائه وتعاسته وآلامه ..

يقول تعالى فى سورة الأعراف " هو الذى خلقكم من نفـــس واحـــدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين .. "

هو إذن سكنه ومأمنه وسر سعادته .. وهى فى كل الأحوال سر جمال الدنيا وبهجتها وحلاوتها .. ولولا المرأة التى خلقها الله عـــز وجـــل .. لتحولت حياة الرجل إلى شقاء وعذاب ... والعكس أيضـــا صحيـــح .. فالمرأة بدون الرجل لا تساوى شيئا .. كلاهما إذن مكمل للآخر .. وهذه هى سنة الحياة . مشيئة الخالق .. والمفروض أن تكون العلاقة بينـــهما حسنة لينة طيبة حتى يتحقق الهدف منها .. ولكن هناك بعض حـــالات تخرج فيها عن الطريق السليم وتؤدي إلى وقوع حوادث ومصادمـــات

وخناقات وربما تقطيع أجساد ، حتى أصبحت (أكياس البلاستيك) تثير خوف الرجال في هذه الأيام ..

والسؤال هو : من المسئول عن دفع المرأة إلى تقطيع الرجل (ترنشات) ووضعه في أكياس القمامة ثم القائه في الخرائب والمجاري والأماكن المهجورة ..؟؟ هل هي تصرفات الرجل .. أو هو طمع الزوجة بعد أن أصابتها اغراءات الحياة المادية بالجنون ..؟؟ خاصة إذا كان زوجها أو وليها لا يملك إلا راتبه وقوت يومه .. وبالتالي إنعدم الأمل في ركوب سيارة أو شراء شقة تمليك أو حتى شراء فستان جديد .. فتصاب بالجنون وتبحث عن إنسان آخر يوفر لها كل ذلك وما أكثرهم مع ظهور بعض الطبقات الطفيلية والتي تلعب بالفلوس وتثير غرائز المحرومين ..

في رأيي أن الوضع الإجتماعي والإقتصادي الجديد هو السبب الرئيسي وراء كل ذلك ، فاللصوص وتجار المخدرات والنصابين والحرامية الذين ظهروا هذه الأيام وسرقوا البنوك والمؤسسات والشركات أصابوا المجتمع (بالخلل) في كل شئ .. في القيم والدين والأخلاق وحتى العلاقات الأسرية والزوجية .. وخاصة وأننا لم نسمع عن أن أحداً منهم قدم للمحاكمة ونال العقاب وخاصة من كبار اللصوص وأكثرهم من كبار المسئولين والعاملين في الدولة .. وحتى من قدم منهم للمحاكمة سرعان ما يخرج بكفالة مالية أو بطريقة سرية ويحصل على البراءة أو تحفظ القضية.

هذا الخلل في نظام الحياة الأجتماعية أصاب الناس بفقد التوازن ولم يعد للقيم والمبادئ والأخلاق من أهمية بعد أن أصبح المتمسكون بها في قاع المجتمع وربما مطاردين من رجال البوليس والأمن ..

وكثرت حالات التفكك الأسري .. والزواج العرفي .. والجمع بين أكثر من زوجين ..

أشياء لو سمع بها أجدادنا أو حتى آباؤنا لأصابهم الجنون لكنها - للأسف الشديد - أصبحت تشكل واقع اليوم وأيام المستقبل .. وهذه الأشياء الكريهة هي إفرازات لما يعانيه ناس مصر المحروسة .. وهذه

الافرازات الكريهة أصابت المرأة خاصة - صحيح قلة منهن - لكن هذه القلة بثت الرعب والخوف فى قلوب الأزواج .. وأصبح الزوج ينظــر إلى أي تصرف تقوم به زوجته بمنظار الريبة والشك .. وهو معـــذور فى ذلك لما يقرأه كل يوم ويطالعه فى الصحف من أعمال النساء ..

هذه الظاهرة دفعتني إلى الغوص فى أعماق كتب الســيرة والتــاريخ لمعرفة ماذا كانت عليه زوجات الأنبياء خاصة بإعتبارهم القدوة .. وقد خلصت إلى نتيجة محددة .. وهى أن المرأة هى المرأة .. وأن اختلفــت تصرفاتها مع الأنبياء عن غيرهم .. لكن الغيرة و (النكــد) والخنــاق كلها صفات عامة مشتركة بين زوجات الأنبيــاء وغــيرهم .. وكلــهن يعملن على إثارة أزواجهن ربما لاشعال نيران الغيرة والحب فى قلوبهم .. فتصرفات المرأة مازالت فى حاجة إلى دراسات مستفيضة.

وقد خرجت بعض نساء الأنبياء عن ذلك القول وتجاوزت إثارة حــب أزواجهن إلى الأضرار وايقاع السوء بهم .. وهذه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.. فالأنبياء معصومون من الخطأ منزهون عــن فعــل المنكــر موجهون من الله عزوجل إلى فعل الخيرات ودعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد .. وكان لابد أن تكون زوجاتهم على شــاكلتهم .. أمانــة وإستقامة وصبراً على البلاء ومواجهة الشدائد واجتياز المحن .. لكنــه سبحانه وتعالى وضع فى بعضهن ضعفا ولينا لا يعلم سره إلا هو عــز وجل ..

ومن هؤلاء الأنبياء (بلعام) أحد أنبياء بنى اسرائيل والــذى كــانت دعوته مستجابة فحثه قومه على الدعاء على موسى عليه السلام حتــى لايدخل عليهم قريتهم وإستغلوا طمع زوجته فأعطوها الذهــب والمــال حتى تمكنت من اغراء زوجها .. حتى إذا هَم ودعا على موسى إنــتزع الله من صدره النبوة وأسقط لسانه على صدره عبرة لغيرة.و(شمشون) أحد أنبياء بنى اسرائيل أيضاً الذي أفشت زوجته سر قوته حتى تمكــن أهلها من إلقاء القبض عليه . و(لوط) عليه الســلام الــذي ســارعت زوجته إلى أهلها تبثهم خبر الملائكة الذين زاروه وتصف لهم جمالــهم

وحلاوتهم ، وكانوا قوماً يأتون الرجال شهوة من دون النساء .و(نوح) عليه السلام الذى لم تذهب زوجته معه فى السفينة فأغرقها الطوفان ..

و" محمد " رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وجد من بعض نسائه مكائد ومؤامرات جعلته يطلق احدى زوجاته قبل أن يدخل بها .. ويمتنع عن زيارة زوجة أخرى كان يأكل عندها عسلا فأخبرته بأن رائحة فمه كريهة فامتنع الرسول عليه الصلاة والسلام عن زيارتها .. وقد تآمر عدد من زوجاته ضد مارية القبطية .

وكانت تقود فصيلة المشاغبات فى البيت النبوى الشريف السيدة عائشة .. وقد ضحك الرسول من أعمالها ومكائدها كثيرا ووصف أزواجه بقوله " إنهن صواحبات يوسف وإن كيدهن لعظيم .. "

ورغم ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدافع عنهن دفاعا عظيما ولا يقبل أن تمس احداهن بكلمة سوء أو كلمة جافية حتى من أهلها أو أمها أو أبيها .

فقد دافع عن عائشة عندما همّ بها أبيها ليؤدبها لأنها ترد القول على رسول الله .. ودافع عن حفصة بنت عمر بن الخطاب عندما همّ أبوها بتأديبها لأنها تراجع رسول الله.

فقد كان النبى يعامل زوجاته كرجل مسئول عنهن وكزوج مطالب بأن تكون له علاقات خاصة مع زوجته مثل كل رجل ولم يعاملهن كنبى ورسول . كانت علاقته بهن علاقة بين زوج وزوجته .. لكل منهما حقوق وواجبات .. ولم يترفع عليهن أو يتكبر أو يتجبر عليهن .. وكان ينام فى حجر السيدة عائشة ويداعبها ويلاطفها دونما حرج .

وكان كل ذلك من أحد أسرار عظمته وقوته وتواضعه .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنه فى كيفية معاملة النساء والصبر عليهن فيما يفعلن ويقلن وان نملك زمام أمورنا وألا يركبنا الغضب .. فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول : " إستوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وأن أعوج شئ فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوجا ، فاستوصوا بالنساء خيراً . "

وقد احتار الفلاسفة والحكماء فى أمر المرأة .. فهى لا تستقر على أمر ولا تصل إلى قرار . وهى دائما شاردة هائمة كالفراشة تبحث عن الضوء لتحترق به وفيه .. وضوء المرأة هو الرجل .. تندفع إليه اندفاعا يكاد يأخذ بعقلها ولبها وفؤادها .. وهى تفعل كل ذلك راضية مرضية حتى ولو احترقت من نيرانه أو إكتوت من وهج نوره ..

هى فى كلا الحالتين سعيده فرحة منتشية .

فهى إن وجدت من الرجل جفوة سعت اليه ولاحقته حتى يلين .. وهى تكشف عن نفسها لإرضائه .. وهى تدنى عليها من جلابيبها لاجتذابه وإخضاعه لها .

وهى فى كلتا الحالتين .. رابحة .

فالرجل هدفها وأملها حتى الموت .. فهى تطارده وترغبه زوجا وتحتويه وتحنو عليه إبنا وتعطف عليه وترعاه أبا .. وهى تبكى عليهم جميعا إن غابوا عنها ..

والرجل دائما منساق إليها .. فهى سكنه الذى أنعم الله عليه به بعد خلقه وفيها وبها يتجدد شبابه وحيوته ويشعر بإنسانيته .. ومن ثم فهو يبحث عنها أيضاً فى كل مكان .. يبحث عن الطرف الأخر للسالب والموجب حتى يتحدا معا وتسرى الحرارة فى دمائهما وتبدأ فصول حكاية جديدة .. كما بدأت عندما استيقظ آدم عليه السلام من نومه فى الجنة فوجد عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه . فسألها :

من أنت ؟

قالت : امرأة

قال آدم عليه السلام : ولم خلقت ؟

قالت : لتسكن إلى

فقالت له الملائكة وهم ينظرون ما بلغ من عمله : ما اسمها يا آدم ؟

قال : حواء

قالوا : ولما كانت حواء ؟

قال : لأنها خلقت من شئ حى .

وقال أهل العلم أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نـــائم ولأم مكانه لحم.

وقيل إنها خلقت من ضلعه لتكون دائما قريبة من قلبه ولم تخلق مـــن عظمة في ساقه فتكون دائما تحت قدمه أو من عظمة فى الرأس فتكــون دائما فوق رأسه .

والقرآن الكريم أعطى للمرأة منزلة عظيمة وأسقط عنها تهمة إخــواج آدم من الجنة كما جاء فى كتاب العهد القديم (التوراة) عنـــد اليـــهود وألقى بالمسئولية كاملة على عاتق الرجل .. فآدم هو الذى استمع إلـــى وسوسة الشيطان وهو الذى شجع حواء على الأكل من شـــجرة الخلــد حتى بانت سواءتهما فأيقن أن الشيطان تمكن منهما وزين لهما الأمر .

ويقول سبحانة وتعالى فى سورة طه : " فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منـــها فبــدت لـــهما سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم إجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعـــض عدو فإما يأتيكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومـــن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى " .

ولكن كتاب العهد القديم (التوراة) يلقى على حواء تهمة اخــراج آدم من الجنة . جاء فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين : " وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الاله ، فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكلا من شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شـــجر الحنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منـــه ولا تمساه لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونا كالله عارفين الخير والشـــر . فــرأت المراة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشـــجرة شــهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معـــها فـــأكل . فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان . فخاطـــا أوراق تيـــن وصنعـــا لأنفسهما مآزر " .

ومن اليهود وكتابهم العهد القديم سرت وانتشرت مقولة أن حواء هي التي رغبت آدم في الأكل من الشجرة الممنوعة . وكأي شئ مستورد سواء أكان من الفكر أو الأدب أو الصناعة أو التجارة وجدت المقولة صدى كبيرا لدى الناس وخاصة الرجال حتى يبرأوا من فعلة أبيهم آدم عليه السلام ، ولم تجد نساء الشرق من يدافع عنهن ويميط هذا الأذى الذي لحق بهن عن غير حق . حتى جاء القرآن الكريم ليؤكد الحقيقة لترسخ حتى نهاية العمر .

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا أيوب بن النجار ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له :

أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم .

قال آدم :

يا موسى أنت الذي إصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقني . و/ أو قدّره على قبل أن يخلقني .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فحج آدم موسى .

ومن هذا الحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه ورواه الأمام أحمد في مسنده يتبين لنا أن حواء بريئة مما ينسب إليها ظلما وبهتانا . وأن ما حدث سواء كان من آدم أو من حواء أو كليهما معا كان أمرا مقدرا من الله سبحانه وتعالى حتى يهبطا إلى الأرض فتعمر وتمتلئ بالناس إلى حين ، وحتى يتبين الخبيث من الطيب والصالح من الطالح فتمتلئ الجنة بما قدر لها وتمتلئ النار بما خصص لها من خبائث الناس واشرارهم .

وقد أعددت هذا الكتاب في أسلوب قصصي ليكون أكثر سهولة ويسرا على القارئ البسيط الساكن في القرى والنجوع وأقاصي الأماكن ولم يصب من التعليم حظاً وفيراً ،وحيث مازالت المرأة ترسف في جهل الرجل بها ويظلها بجبروته وسطوته وقوته ونفوذه ويعاملها كما كانت تعامل النساء أيام الجاهلية .. آملا أن يكون فيه فائدة تساهم في كسر

القيود من يدها وإزالة ما تعانيه من ظلم والأخذ بيدها إلى الطريق السليم لتنير للرجل الطريق للاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملته لأزواجه بالحسنى والصبر عليهن حتى يعدن إلى رشدهن .

وقد آثرت أن أبدأ الكتاب بحكايات ومكائد أكثرها عن زوجات الأنبياء حتى تكون نبراساً يهتدى به العامة ويستفيد منه الجميع ، لنلقي الضوء على الجوانب السلبية في علاقة الرجل بالمرأة دون أن نلجأ إلى اتخاذ موقف معاد للمرأة .. وليس في هذا التخصيص إجحاف بالمرأة .. وانما نهدف منه إلى إظهار كيف كان يعامل الأنبياء نساءهم سواء كن زوجاتهم أو غير ذلك .. فتعاملات الأنبياء مع النساء هي قدوة حسنة وسنة طيبة يجب أن نقتدى بها ما شاء الله لنا من حياة .

والله من وراء القصد .

عنيزة .. عجوز بنى ثمود

تآمرت النساء من أجل القضاء على دعوة نبى الله صالح بعد أن فشل الرجال وحدهم فى ذلك ، وشاع فى أعماقهم وقلوبهم الخوف والرعب والجبن إن هم أقدموا على هذا الفعل ..

وانتشرت النساء بين الرجال يدعوهم إلى القضاء على صالح وناقته . وأنهم إذا تمكنوا من عقر الناقة فسوف ينالهم رضاء كثير وحب وفير وسعادة دائمة لا تنقطع أبدا ..

وكانت النساء صغيرات جميلات ذات حسب ونسب يتمنى أى رجل فى (ثمود) أن يظفر بإحداهن زوجة له .. أو على الأقل بكلمة رضاء أو ابتسامة تحي الأمل فى القلوب ..

ونجحت النساء فيما فشل فيه الرجال .

وكان أهل ثمود يتميزون بطول القامة وطول العمر ، حتى أن أجيالا فى مناطق أخرى كانت تفنى ومازال جيلهم يتمتع بالصحة والعافية .. ولهذا كانت بيوتهم التى يقيمونها سرعان ما تنهار وتسقط وتصبح أطلالا وهم مازالوا فى كامل صحتهم وقوتهم وحيويتهم .. ولهذا اتجهوا إلى الجبال والصخور ينحتون منها بيوتا فارهة واسعة تظل معهم ولهم حتى يحين الأجل ..

يقول سبحانه وتعالى " وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين " .. " وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنيين " .

وإلى سام ابن نوح ترجع أصول قبيلة ثمود وكانوا يقيمون فى الحجر بين الحجاز وتبوك والشام .. وكانوا من القوم المؤمنين الذين اتبعوا نوح عليه السلام .. وتجمعوا فى هذه المنطقة وتناسلوا وتكاثروا وأصبحوا أعدادا كثيرة بعد أن من الله عليهم بنعمته ورضائه لأنهم آمنوا بنوح وبدعوته وعبدوا الله عز وجل وأخلصوا فى العبادة حتى رضى عنهم وأصبحت أرضهم خصبة ذات جنات وعيون وزرع أشجار وثمار وفواكه من كل لون وأصبحت ذات مقام كريم .

فلم يكن فيها جوعان أو عطشان أو فقير .. خيرات الله كثيرة يرزق بها عبادة المؤمنين المخلصين .. وهم كانوا كذلك فأكثر الله من رزقهم ورضى عنهم فعاشوا فى نعيم مقيم ..

واستمر النعيم إلى حين ..
تتابعت أجيال .. ووسوس الشيطان .. فانحرف القوم عن عبادة الله وبدأوا في عبادة الأصنام وزين لهم الشيطان ارتكاب الفواحش ما ظهر منها ما بطن .
واختلط الحابل بالنابل حتى غرقت ثمود في كفرها وغيها وضلالها .
وبعث الله لهم صالحا يدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات وتوثيق صلة الرحم والعطف على الفقير والمسكين
لكنهم لم يصدقوه .. فقد كان فقيرا .. وكيف يختار الله رجلا فقيرا لدعوته .
قال تعالى : " كذبت ثمود بالنذر .. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر .. "
وانفضوا من حوله .. إلا قلة قليلة آمنت بدعوته بعد أن تذكرت قوم نوح وما فعله الله بهم .. وكيف نصره ربه على أعدائه فأنجاه وقومه وأهلك القوم الكافرين .
وبدأت أعداد المؤمنين تتزايد وتتسع في كل مكان حتى أثار ذلك حقد الآخرين .
وأخذ صالح يطوف في الجبال والمزارع يدعو الناس إلى عبادة الله عز وجل .. وذكرهم بما حدث من قبل للذين لم يصدقوا نوحا فأغرقهم الله وأنجى المؤمنين ، وأنهم من أبناء وسلالة هؤلاء المؤمنين الذين أنجاهم الله مع نوح ..
لكن أحدا من الأغنياء وكبار القوم لم يصدقه وعملوا على النيل منه والإستهزاء به وبدعوته .. وساعدهم في ذلك كهنة التماثيل الذين عبدوها من دون الله .. حتى لا يفقدوا بدعوة صالح نفوذهم وغناهم وسطوتهم بين الناس .
وأقبل عليه الفقراء .. وأصبحوا كثرة أخافت كبار القوم وبعثت في قلوبهم الرعب ..

وعقدوا الاجتماعات وأقيمت الندوات لمعرفة كيفية مواجهة دعوة صالح والقضاء عليها قبل أن تستفحل وتتضخم وتقضى عليهم .

قال بعضهم : نقتله .. ونستريح منه .

وقال آخرون : لو قتلناه لارتفعت أسهمه وعلا قدره وزاد المؤمنون به .. هكذا أثبتت التجارب من قبل .

وجاء من مكان قصى صوت مجهول يقول :

إن كان يريد ملكا أعطيناه .. وإن كان يريد مالا زدناه .. وإن كان يريد مركزا بيننا أعطيناه .

فأتى إليه صوت صالح قويا وقد أتى إلى الجمع ليتبيين الخبر ويفند مزاعمهم وآرائهم .. ويقول كلمة الحق .. قال :

والله الذى لا له إلا هو والذي يحيي ويميت وبيده كل شئ وله ملكوت السماوات والأرض ، لو أعطيتموني مثل هذه الجبال والرمال من حولكم ذهبا وفضة ما تركت أمر ربي بالدعوة إلى عبادة الواحد الأحد ، حتى ولو أزهقت روحي فى سبيلها وفنى جسدي وذقت الآلام والعذاب ليل نهار من أجل إظهارها .. ما ترددت أبدا فى فعل ذلك .

ران على القوم سكون عظيم .. وزاد ايمان الذين اتبعوه وجن جنون الذين يحاربونه فقد خافوا من قوته وصلابته وبيان حجته وعرفوا أنه غالب على أمرهم .. فحاروا ماذا يفعلون ..

قال رجل منهم : " يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب " .

قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير " ..

لقد بعثنى الله اليكم لاخرجكم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان ولأجنبكم عذاب النار .. يا قوم إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ..

أتظنون أن الله يتركم فى هذا المكان آمنين تتعمون بخيرات الجنات والعيون . وهذه الزروع والنخل ذات الطلع الهضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين..

يا قوم اتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

قالوا بعد أن أخذتهم الحيرة من أمرهم :

إنما أنت من المسحرين وما أنت سوى بشر مثلنا يأكل ويشرب وينتظر الموت .. فإن كنت صادقا فيما تقول فأت بآية إن كنت من الصادقين ..

إئتنا بناقة عشراء حمراء كحلاء كبيرة الحجم عظيمة الجرم ذات صفات غير صفات الإبل ويشرب من لبنها كل أهل المدينة .

قال لهم صالح :

أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنوا بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ؟

قالوا :

نعم نؤمن بك وبدعوتك بشرط ان تخرجها لنا من هذه الصخرة ..

وأشاروا إلى صخرة غير بعيده عنهم ..

وقام صالح إلى الصلاة يناجي ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا .. وكانت عيون القوم تتبعه وقد أمسك بهم الصمت حتى إعتقد من رآهم أنهم ماتوا أو أنهم تماثيل قدت من الأحجار .. ولكن قلوبهم وعقولهم وعيونهم كانت واعية لحقيقة ما يدور من حولها حتى تتبين الأمر ..

كبار القوم ومنافقيه كانوا فى حيرة شديدة لا يدرون ماذا يفعلون لو صدق صالح فيما قال وظهرت الناقة ..

والمؤمنون كانوا على ثقة من نصر الله لهم ولنبيهم ولدعوته وأن الله مظهر كلمته على المشركين مهما فعلوا ..

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقالوا إن هى إلا فرصة لكى نعرف الحقيقة .. فإن كان نبيا وصدق فيما قال وظهرت الناقة إتبعناه ، وإن كان غير ذلك بقينا على حالنا ولا يمسنا الضر من أهلنا ..

وأطال صالح الصلاة والدعاء ..
وأمر الله عز وجل تلك الصخرة فتحولت أمامهم إلى ناقة فارهة حمراء الوبر سوداء الحدق .. ترغو بين الصخور .
وبهت الذين كفروا ، فقد جاءت الناقة كما طلبوا وغالوا في وصفهم حتى إعتقدوا أنهم قالوا ما يستحيل على أحد أن يحققه ..
لكنه حدث .. وأصبح الحلم حقيقة واقفة أمامهم ملء العين والبصر فكيف يكذبوه ؟ وماذا يقولون له وماذا يفعلون مع أهل المدينة ..
وتفتق ذهنهم عن شئ ..
قالوا :
إنما أنت من المسحرين .. ولست بنبي .. وأن هذا من فعل السحرة وكيدهم .. وأن كيدهم لعظيم ..
وقال المؤمنون :
وما هذه إلا آية من آيات الله .. زادتنا ايمانا وتسليما بقدرته وعظمته.
وقال الذين في قلوبهم مرض :
إن هو إلا نبي بعثه الله الينا كما بعث نوح إلى قومنا من قبل . نتبعه وننجوا من القوم الكافرين ..
وتكاثرت أعداد المؤمنين والموحدين بالله من حول صالح ووقف صالح في القوم يقول :
هذه ناقة الله لكم آية . فاتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسها أحد منكم بسوء فيأخذكم عذاب قريب .. وإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم .
وعاشت الناقة بينهم آية من آيات الله زادت المؤمنين إيمانا وأشعلت نار الغيرة في قلوب الذين كفروا .. لكن أحد منهم لم يمسسها بسوء ..
ولم يعترض طريقها أحد . كانت تغدو وتروح حيث تشاء تأكل من المراعي والمزارع في السهول والجبال دون إعتراض من احد . من آمن ومن كفر .
وكانت ترد الماء يوما تشرب فيه ما تشرب حتى إذا فرغت وجاء اليوم الثاني اعتزلت الماء واتخذت مكانا قصيا حتى يأخذ الناس حاجتهم

من الماء في يومهم المعلوم ثم يقصدون الناقة وقـد أتـت بفصيلـها ، فيحلبونه ويشربون منه هنيئا مرئيا ثم يحملون منه إلى بيوتهم وأولادهم.

وشبع الفقراء ولم يعد هناك محتاج . فقد شبع الجميع .. لكن الاغنياء لم يعجبهم الأمر بعد أن خرج الناس عن سلطتهم وسطوتهم وأصبحـوا طوع بنان صالح ..

وفكروا في خطة لاعادة الأمور إلى ما كانت عليه .. واجتمع القـوم يبحثون كيفية القضاء على صالح وناقته والمؤمنين معه .. فقد أصبح - رغم فقره - كبير القوم يسعى إليه الناس لبحث مشاكلهم والعمل علـى حلها والتزود بالنصيحة منه .. وأصبح بيته مقصدا لكـل المؤمنيـن .. وأصبحت ناقته مثلا يمشي بين الناس على قدرة الله تعالى على أن يخلق ما يشاء بغير حساب . وكلما خطت أو مشت أو جرت فهي في كل ذلك انما تؤكد قدرة الله وتؤكد أن صالح نبي وأن ما يقوله انما هو من عنـد الواحد الأحد ..

وكان أكثرهم كرها لصالح وناقته صاحب أوثانهم (الخباب) وكاهنهم (رباب بن صقر) ، وكانا يطوفان على اهل المدينة يبثون في نفـوس الناس الكراهية والحقد لصالح وناقته ..

وكانا يقولان لهم إن الناقة تأكل آكل مواشيهم فإذا كان الشتاء أكلـت مراعي السهول وإن كان الصيف أكلت مراعي الجبال .. ولهذا هزلـت وضعفت مواشيهم وحيواناتهم .

وكان بعض ضعاف النفوس يصدقونهم . لكنهم لم يكونوا يعلمون ماذا يفعلون ..

فقالا لهم : إقتلوا الناقة حتى يخلو لكم كـل المراعـي فـي الجبـال والسهول وتسمن مواشيكم وتكبر وتأكل حتى تشبع وتشرب كـل يـوم حتى ترتوي ..

لكن الناس نظروا إليهما وكأنما مسهم مما سمعوا أمرا عظيمـا .. وتساءلوا فيما بينهم : أنقتل ناقة الله وآيته على أرضـه ونحـن الذيـن طلبناها من صالح آية على صدق حديثه ودعوته . فإذا دعا ربه وخلقها لنا آية نكفر به وبها وبصالح ..

وانصرفوا عنهما ..

وأوحى الله إلى صالح بما يأتمر عليه القوم .

وجاء صالح إلى قومه وقال : " يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون .

قالوا : إطيرنا بك ومن معك

قال : طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون

وقال فريق ممن آمنوا : ما كنا لنسئ إلى الناقة وهى آية الله لنا

قال صالح : أن فيكم من يحرض على قتلها وسيولد منكم من يقتلها .

فأصابهم الخوف والجزع مما قال وتساءلوا : وهل من أحد يجرؤ على قتلها ؟ أخبرنا به .

قال صالح : يقتلها رجل أشقر ، أزرق ، أصهب ، أحمر

فأقسموا فيما بينهم أن يقتلوه قبل أن يفعل فعلته .

وشعرت نساء ثمود بضعف رجالهم وأنهم لا حول لهم ولا قوة إزاء ناقة صالح وآية الله لهم واندفاع الناس للدخول فى دين الله أفواجا ..

فقررن أن يتولين هذه المهمة ..

أن يعقرن الناقة وأن يتخلصن من صالح والمؤمنين معه .

ولكن عليهن انتظار اللحظة المناسبة وظهور ذلك الرجل الأشقر الأزرق الأصهب الأحمر والذى سوف يستمع إلى كلامهن ويعقر الناقة .. ويفعل ما لا يستطيع رجال قبيلة ثمود فعله . وعليهن فقط أن يتحلين بالصبر الجميل حتى يأتى الموعد .

وكان فى قبيلة ثمود شيخان كبيران ذا هيبة ونفوذ ويعمل لهما كل الناس ألف حساب خوفا من شرهما وطمعا فى رضائهما وتجنبا لإيذائهما .

وكان لأحدهما ابن وللآخر ابنة فتزوجا وأنجبا الولد الأشقر الأزرق الأصهب الأحمر .. وأدركت القابلة أن من ولد هو الذى عناه نبى الله صالح وسوف يعقر الناقة . وكان أبوه قد أسماه (قدار) . لكنها خافت إعلان ذلك أو الحديث فيه حتى لا يأخذها كبار شيوخ القبيلة بالعذاب

الشديد .. وأخفت الأمر بين ضلوعها ولم تنبس ببنت شفة لأى إنسـان مهما كان ..

ولكن أمر الصبى (قدار) ذاع بين الناس وعلموا به . ففى البيـوت الكبيرة ألف عين وألف أذن ترقب وتشاهد وتسمع .. وان كانت لا تتكلم خوفا من البطش والموت وذاع الخبر بين الناس ..

ولد (قدار) الذى سيعقر الناقة ..

وانتظر الناس ماذا سيحدث ..

الكفار فرحين بمولده ليعقر الناقة ويخلصهم منها ومن صالح وأتباعه.

والمؤمنون لكى يروا بأعينهم وما وعدهم به صالح وما أخبرهم بـه من عذاب عظيم للكافرين وأن تأخذهم الصيحة فيصبحوا فـى ديـارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها .

وشب (قدار) وكبر وأصبح ذو قوة وسطوة ونفوذ وجمع من حولـه ثمانية من قرناء السوء وعاثوا فى المدينة فسادا ونهبا وسـطوة حتـى خافهم القوم واصبحوا يرهبونهم .. وقرروا أن يحققوا ما تمناه قومـهم من عقر الناقة والقضاء على دعوة صالح والقضاء على المؤمنين مـن أتباعه .

يقول الله تعالى : " وكان فى المدينـة تسـعة رهـط يفسـدون فـى الأرض ولايصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهـم لا يشعرون ."

ولكنهم مع ذلك خافوا من تنفيذ ما إتفقوا عليه ..

كيف يعقرون الناقة .. فيصيبهم عذاب أليم بمـا اكتسـبوا وسـوف يدمرهم رب صالح وقومهم معه فيصبحوا كالهشيم المحتظر .

وظل كلامهم ونيتهم فى القلب ولم يخرج إلى حيز التنفيذ .

لكن عجوز بنى ثمود وكان أسمها " عنيزة بنت غنيم بن مجلز " كانت لهم بالمرصاد تتبع خطواتهم وحركاتهم وأيقنت أن فى قلوبـهم ضعـف ولابد من أشد أزرهم . وكانت (عنيزة) مازالت علـى ديـن قومـها

وعبادة الأوثان ، وتتمنى أن تقدم كل ما تملك من أجل عقر ناقة صالح والقضاء على دعوته ..

وكانت لديها عدد من البنات ذوات حسن وجمال .. وكانت أصغرهن تتمع بحسن فائق وجمال أخاذ جعلها مقصد شباب القبيلة وموضع طلبهم للزواج منها . لكن أمها كانت تراوغ حتى يتزوج أخواتها الأكبر منها .

وكانت تعلم أن (قدار) شغوف بإبنتها الصغرى يطوف حول بيتها ليل نهار يلقي بالقصائد والأشعار عشقا لها ويتمنى لحظة وصال أو كلمة رضاء ..

فوعدته (عنيزة) ان هو مع رفاقه الثمانية عقروا ناقة صالح فسوف تزوجه منها وتزوج باقي بناتها ممن يحببن ويردن .

وكانت هناك شابة جميلة ثرية أسمها صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار تكره أن ترى صالحا وقد كثر المؤمنون من حوله فأغرت ابن عمها (مصدع) بالزواج منها إن هو شارك (قدار) فى عقر الناقة ، وانتقاما من زوجها السابق الذى تركها واعتنق دين صالح .

وتبارت نساء ثمود فى جذب الشباب وتشجيعهم على عقر الناقة والقضاء على صالح ومن معه .. وقدمن لهم الكثير من والوعود والأحلام والليالى الجميلة ..

وغرق الشباب فى الأحلام والوعود وجلسات الحب والهوى حتى أرتوي كل منهم حتى ثمل حبا وخمرا فأيقنت نساء ثمود أن رجالها وشبابها أصبحوا تحت أيديهن وتصرفهن ، فوضعن خطة لعقر الناقة واستعد الشباب لتنفيذها .

وجاء الوقت المحدد فإنطلق (قدار بن سالف) يقود مجموعته الثمانية لتنفيذ الخطة والقضاء على الناقة .

وتربصوا بها وهى على مورد مائها تشرب . فتحلقوا حولها وتقدم إحداهم لإصابتها وضربها لكن الخوف تملكه فجأة وارتعدت أوصاله وسقط السهم فى يده .

وكرر آخر ثم آخر محاولة ضرب الناقة لكن كل محاولة كانت تفشل.

وجن جنون (مصدع) فوقف على ربوة ورماها بسهم وهى تنصرف عن موردها ثم هوى بسيفه على ساقيها فكشف عن عروقها فسقطت على الأرض ورغت رغاء عظيما فطعنها فى رقبتها فنحرها .

وفرح الناس بفعلة (مصدع) وعقره الناقة فتصايحوا ونشروا الخبر فى المدينة فأقبل إليهم صالح مسرعا يتقصى حقيقته ..

وعرف بما حدث وأن الشباب يطارد إبنة الناقة فى الجبل بعد أن هربت فرارا منهم . فأسرع اليهم عسى أن يتمكن من إنقاذها منهم .

لكنهم كانوا قد تمكنوا منها وذبحوها أيضا . ورغا الفصيل ثلاثا ثم مات . واعتذر إليه الناس بين فرح ومهموم وخائف مما سوف يحدث وما وعد به صالح إن حدث مكروه للناقة وفصيلها .

واخفى الكفار فرحتهم .. ولكن (عنيزة) لم تستطيع أن تخفى فرحتها فجمعت بناتها وبنات أقاربهم وصديقاتها وطفن فى الشوارع يعلنون فرحتهن ويرقصن ويغنين طربا وسعادة .

ووقف صالح حزينا يبكى حال قومه وما سوف يأتيهم من عذاب شديد فما يغنى عنهم ما كانوا يكسبون وقال لهم :

تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب . فيوم تصفر فيه وجوهكم . ويوم تحمر فيه وجوهكم . ويوم تسود فيه وجوهكم . ثم يحل بكم عذاب الله .

لكن حديثه لم يعجب المتآمرين ، وشجعتهم (عنيزة) بأن يحضروا الفصيل المذبوح ويضعوه إلى جانب أمه ثم يقطعوا لحمها ويأكلونه ويوزعونه على قبيلة ثمود .

وفعلوا ذلك ساخرين من صالح وممن اتبعه من المؤمنين واتفقوا على التربص لصالح بين الصخور لقتله وأعلنوا أنهم مسافرون حتى لا يرتاب أحد فى أمرهم أو يوجه إليهم تهمة قتل الفصيل بعد ذلك .

وتربصوا فى الجبل ينتظرون مقدمه فى أى لحظة .. وكانوا تسعة .. مصدع وزبانيته الثمانية . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

وكانت عاقبة مكرهم أن الله قضى عليهم أجمعين إذ تساقطت عليهم الصخور من قمة الجبل بينما هم يتربصون بصالح لقتله فماتوا جميعا ودفنوا تحت الصخور .

وخرج من شارك في المؤامرة وعلى رأسهم (عنيزة) وبناتها قاصدين الجبل ليشاهدوا جثة صالح ويمنحوا شباب المتآمرين ما اتفقوا عليه من متعة ولعب ولهو وأن يصحبوهم في رحلة عودتهم بالأهازيج والأفراح ودقات الطبول ..

لكن المفاجأة الحزينة أفقدتهم الشعور بالفرح وبدأ الحزن والخوف يسرى إلى أوصالهن .. فصالح مازال حيا يرزق وأنصاره من المؤمنين مازالوا حوله .. وأما شبابهم فقد مات تحت الصخور والحجارة والرمال .. وماتت معهم كل أحلامهم وآمالهم ..

وانتابهم ذعر شديد .. فقد بدأت العلامات التي ذكرها صالح تظهر عليهم مع اليوم الأول فقد اصفرت الوجوه وفي اليوم الثاني احمرت الوجوه وفي اليوم الثالث اسودت الوجوه .

وأيقنوا أن صالحا كان على صواب فيما قاله وندموا على عدم اتباعه والإيمان بالله الواحد الأحد .. لكن الوقت كان قد فات .. وفي اليوم الرابع استسلموا لقدرهم ومصيرهم ونهضوا إلى اكفانهم فتكفنوا والى حنوطهم فتحنطوا وجلسوا ينتظرون الموت وعقاب الله لهم ولا يدرون من أين سيأتيهم .. من فوقهم أو من تحتهم .

فما كانت إلا صيحة واحدة حتى كانوا كهشيم المحتظر . وكانت عاقبة مكرهم أن دمرهم الله وقومهم أجمعين وأصبحت بيوتهم خاوية بما ظلموا فأصبحوا بذلك آية لقوم يعلمون .

وقيل إنه لم يبق منهم أحدا إلا جارية كانت مقعدة واسمها (كلبة بنت السلق) وكانت شديدة الكفر والعدواة لصالح عليه السلام . فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى أسرع شئ ، فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء . فلما شربت ماتت..

وأنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون .

ويروى الأمام أحمد عن جابر قوله : أنه لما مر رسول الله عليه وسلم بالحجر قال : " لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج . فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما . فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله (عز وجل) من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحد في حرم الله (عز وجل) قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : هو أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه " .

وذكر محمد بن اسحاق في السيرة عن اسماعيل بن أميه عن بجير بن أبى بجير . قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجنا معه إلى الطائف . فمررنا بقبر فقال : " إن هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف . وكان من ثمود . وكان بهذا الحرم يدفع عنه . فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه . وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب . إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه . فابتدره الناس فإستخرجوا منه الغصن .

وقال الأمام أحمد عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك . نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود . فعجنوا منها ونصبوا القدور . فأمرهم رسولا الله فأهرقوا القدور . وعلفوا العجين الأبل . ثم إرتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منه الناقة ونهاهم وأن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم ."

وفى رواية أخرى قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين . فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم . أن يصيبكم مثل ما أصابهم . "

والهة ..امرأة لوط

تامرت روجة لوط عليه وأبلغت أهلها ورجال مدينتها بالزائرين الحسان لزوجها لوط .. وتمادت في وصف جمالهم وحلاوتهم التي لم ترها على أحد من الرجال من قبل . فأثارت شهوتهم وانتفضت مكامن الغريزة فيهم فإلتهبت أعصابهم واحترقت عواطفهم شوقا إلى هذا الصنف الجديد من الرجال والذى لم يسمعوا به من قبل .. فأسرعوا إلى بيت لوط لرؤيتهم ومعاينتهم والتأكد من صحة الكلام الجميل والوصف الحسن الذى قالته عنهم امرأة لوط (والهة) كما قال عن إسمها أكثر الرواة ، أو (واعلة) كمال قال بعضهم ..

وكان قوم لوط يأتون الرجال شهوة ما سبقهم في فعلتها أحد من العالمين .

قال تعالى : " إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر . "

ولم يكن لهم من حب أو عشق في النساء وانصرف كل همهم إلى البحث عن المتعة الجنسية في الرجال . وحذرهم لوط من ذلك لكنهم كانوا دائما يعتدون عليه ويتندرون منه ومن كلامه وأقواله ودعوته إلى عبادة الواحدة الأحد وترك ما هم فيه من عبادة للأوثان والسرقة والنهب وقطع الطريق ومعاشرة الرجال دون النساء.

قال تعالى : " ولوط إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أناس يتطهرون ."

ولم يستطع لوط مواجهة قومه ، فقد كان ضعيفا فيهم ليس له من قوة أو سند أو عائلة كبيرة يحتمي بها أوعشيرة تمنعه منهم .

ولهذا قال عليه السلام : " لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد. "

فقد تمنى أن يكون قويا ليدفع عن ضيفه ما سوف يسئ إليهم وما سيصيبهم من جراء نزوة قومه وفجورهم .. أو أن يكون له ركن شديد يأوى إليه وقت الشدة ويسانده وقت الضعف .

وقال أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رحمة الله على لوط . لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا فى ثروة من قومه . "

وكان ضيوف لوط ملائكة الله .. جبريل وميكائيل واسرافيل .. وقد تنكروا فى صورة شباب جميل رائع الحسن إختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم . وكانوا قادمين من عند ابراهيم عليه السلام بعد أن بشروه بأن الله سوف يرزقه بغلام عليم . لكنه لم يصدق فقد بلغ من العمر عتيا واشتعل الرأس شيبا . وكانت امرأته عجوز عقيم فصكت وجهها عندما سمعت بالبشارة غير مصدقة .. فقالوا له بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . فإستعاذ بالله من الشيطان الرجيم فقال إنه لا يقنط من رحمة الله الإ القوم الضالين . فأكرم ابراهيم ضيوفه وجاء لهم بعجل حنيذ كبير ليذبحه تكريما لهم لكن الخوف تملكه عندما رأى أيديهم لا تصل إلى أفواههم ، فأخبروه بحقيقتهم .. فذهب عنه الروع .. وسألهم عن مقصدهم فقالوا : إن الله أرسلهم إلى قوم لوط بعد أن كثر إجرامهم وعظمت أعمالهم وأفعالهم وارتكبوا ما لم يرتكبه غيرهم من العالمين من معاشرة الرجال واتيانهم من دون النساء . خاف إبراهيم عليه السلام على لوط ابن أخيه هاران . وقد أسماه لوطا لأن حبه لاط ولصق بقلبه وتعلق به . وكان أول من آمن بدعوة إبراهيم عليه السلام وتبعه مهاجرا من بابل إلى أرض الشام وطمأن الملائكة إبراهيم على لوط وأهله ..

لكن إبراهيم كان حليما أواه منيب فأخذ يسأل الملائكة عما يفعلونه فى لوط وأهله وقريته ويتساءل :

أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟

قالوا : لا

قال : فمئتا مؤمن ؟

قالوا : لا

قال : فأربعون مؤمنا ؟

قالوا : لا

قال : فأربعة عشر مؤمنا ؟

قالوا : لا
قال ابن اسحاق : إلى أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟
قالوا : لا
قال : إن فيها لوط
قالوا : نحن أعلم بمن فيها .

وخرجت الملائكة من عند ابراهيم قاصدة أرض سدوم قرية لـــوط . فأتوها نصف النهار في صورة شبان حسان . فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنه لوط تستقى من الماء لأهلها .

وكان للوط ابنتان . الكبرى اسمها (ريثا) والصغرى (زغرتــا) . فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟

فقالت لهم : مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم ، شفقة عليهم من قومها .

فأتت أباها فقالت :

يا أبتاه .. أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هـــي أحسن منهم . تركتهم هناك حتى لا يأخذهم قومك فيفضحوهم .

وكان قومه قد نهوه أن يضيف رجلا واشترطوا عليه أنه فـــى حالـــة قدوم ضيوف رجال إليه أن يتولوا هم ضيافتهم منعا لإحراجه .

لكنه تمكن من إحضارهم ولم يعلم أحد من قومه إلا أهل بيته .

وحزن حزنا شديدا عندما وقعت عيناه عليهم . فقد كانوا أجمل مـــن رأى من الرجال وربما لم يشاهد أبدا من قبل طيلة حياته من هم أجمـــل منهم ..

وأيقن أن المصيبة واقعة لا محالة إذا علم قومه بمقدمهم ورأوا جمالهم وسحرهم وصفاء وجوههم وإشراقة ابتسامتهم وسمعوا عذوبة صوتـــهم وحلاوة كلماتهم .

وضاق بهم ذرعا . وقرؤوا ماعلى وجهه من غضب وحيرة وخوف.

فقالوا له : لا تخف ولا تحزن إننا سوف ننجيك وأهلك من ظلم هـــذه القرية ، إلا امرأتك ، وسوف ينــزل الله عليها رجزا من السماء بمـــا كانوا يفسقون .

وعندما رأت امرأة لوط جمال وحلاوة الضيوف سارعت بالخروج إلى قومها لتخبرهم بأمرهم وتحثهم على التبكير بالحضور إلى بيتها للقائهم قبل أن يخفيهم لوط فى مكان أمين بعيدا عنهم وعن مقاصدهم .

وكانت امرأة لوط عين قومها على لوط وما يقوم به داخل بيته .

فهرعوا إليه مسرعين حتى يتبينوا الأمر . فإذا ما قالته زوج لوط أقل من الواقع بكثير . وأخذ القوم بجمالهم وحلاوتهم التي لم يروها على رجل من قبل ، فهجموا على باب بيته . لكن لوطا عليه السلام كان لهم بالمرصاد وتترس من خلف الباب ليدافع عنهم . وعندما لم يشعر باستجابة القوم له عرض عليهم بناته وقال : " يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد . فقالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد . "

وتملك لوط حزن شديد وعرف أن القوم مصممون على موقفهم وانه ضعيف أمامهم وليس له من قوة يستطيع بها مواجهتهم . فتوجه إلى الله يدعوه أن يساعده وأن ينجيهم وينجي ضيوفه من القوم الفاسقين . وقال فى نفسه : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد .

فأشفق عليه الملائكة وبثوا الطمأنينة فى قلبه وهم يرونه يدافع عنهم ويتترس خلف باب بيته ليمنع القوم من دخوله وإيذائهم ويعظهم وينهاهم عن فعل المنكر لكنهم كانوا مصرين على ذلك عازمين على إقتحام البيت وفعل المنكر به .. فبشره الملائكة بهلاك القوم فى الصباح وطلبوا منه أن يخرج مع أهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلى الوراء .

وقالوا : يا لوط إن ركنك لشديد وانهم آتيهم عذاب غير مردود ولن يصلوا إليك أبدا . ثم طلبوا منه أن يفتح باب بيته فضربهم جبريل بجناحيه فى وجوههم فطمس أعينهم وأصابهم بالعمى يقول الله عز وجل: " لقد راودوه عن ضيفه فطمسنا على أعينهم . " ولم يعرفوا بيوتهم وقالوا إن عند لوط سحره لم نر مثلهم فى البلاد من قبل ولسوف نأتيه فى الصباح بسحرة يفعلون به مثلما فعلوا بنا.

وأدرك لوط أن ضيوفه ليسوا سوى ملائكة من الله قدموا إليـــه لكـــى يهلكوا قومه لكفرهم وضلالهم ونفاقهم وما يقومون به من مساوئ ..

فقال لهم : اهلكوهم الساعة .

فقال جبريل : أن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب وأمـــــره أن يخرج وأهله بالليل ويترك المدينة ولا ينظر أحد منهم وراءه .

ويقال أن جبريل عليه السلام اقتلع كل مدن لوط وكانت سبعة بما فيها من سكان وحيوانات وارتفع بعا عنان السماء الدنيا حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم وجعل عاليها سافلها .

وقال الله تعالى : " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى مـــن الظـــالمين ببعيد . "

وقال تعالى : " إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون . "

وكانت آية الله البينه أن جعل مكان تلك البلاد - كما يقول ابن كثـير - بحرة منتنه ميته لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمـــة لفنائها لرداعتها فصارت عبرة ومثلا وآية على قدرة الله وعظمته وعزته وفى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه .

وأما زوجة لوط فقد خرجت مع زوجها وابنتها ولكنها لمـــا ســمعت الصيحة وسقوط البلدة التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها وصـــاحت وا قوماه فسقط عليها حجر فدمغها والحقها بقومها إذ كانت مازالت علـــى دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيوف .

ويروى ابن إسحاق فى كتابه قصص الأنبياء أنه لم يعد هناك أحد من قوم لوط إلا رجل بقى أربعين يوما وكان بمكة فجاءه حجر ليصيبه فـى الحرم . فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر إرجاع من حيث جئت فـإن الرجل فى حرم الله فوقف الحجر خارج الحرم أربعين يوما بين السـماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته فلما خرج أصابه الحجـــر خـــارج الحرم فقتله .

ونجا لوط وابنتاه معه وصعدوا من صوغر وسكنوا الجبل ولم يكن معهم أحد وشعرت الأبنتان لنهما فى حاجة إلى رجل مثل كل النساء فتآمرنا على أبيهمنا كما جاء فى كتاب اليهود .

جاء فى الأصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من العهد القديم : قالت البكر للصغرى أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض . هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنجئ من أبينا نسلا .. فسقنا أباهما خمرا فى تلك الليلة . ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم بإضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضجعت البارحة مع أبي . نسقيه خمرا الليلة أيضا فإدخلي اضطجعي معه . فنجئ من أبينا نسلا فسقيا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا . وقامت الصغيرة واضطجعت معه . ولم يعلم بإضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت إبنتا لوط من أبيهما . فولدت البكر إبنا ودعت اسمه (موآب) وهو أبو (الموآبين) إلى اليوم والصغيرة أيضا ولدت إبنا ودعت أسمه (بنى عمي) وهو أبو بنى عمون إلى اليوم .

وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أم فيها كثير من الخيال والإضافات والتأليف كما فعل بنو إسرائيل فى كتابهم فإن ما يعنينا هو ما حدث لامرأة لوط من انتقام من الله لها لأنها خانت زوجها ..

وهذا أمر أكده القرآن الكريم ليعطى للناس والنساء خاصة درسا ومثلا وعظة لما يجب أن تكون عليه الزوجة مع زوجها . ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة يوسف : " لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب "

وفى كل قصص القرآن الكريم عبرة للمعتبرين ودروس للمفكرين ومنارة للسائرين ونور على الطريق يهدي الله إليه من يحب .

رفقة .. امرأة إسحاق

نادت رفقة على ولدها يعقوب .. وأخذته فى مكان قصى بعيدا عن العيون وأسرت إليه بحديث سمعته يدور بين زوجها إسحاق عليه السلام وإبنها عيسو (العيص) .

قالت لإبنها وكانت تحبه أكثر من بكرها عيسو : سمعت أباك يطلب من عيسو أن يأخذ عدته وقوسه وأن يخرج إلى البرية لكي يتصيد له صيدا يطعم منه ويأكل حتى يشبع لكى يباركه قبل أن يموت . وقد خرج عيسو إلى البريه كي يتصيد صيدا يأكل منه والدك وبذلك سوف يحصل على البركة كلها ولن ينالك منها شيئا . وسيدعو إسحاق لولده بكل الخير ولن ينال يعقوب إلا الأسى والحزن والكد والتعب فى الحياة .

وقف يعقوب يستمع إلى أمه مذهولا حزينا لا يدرى ماذا يصنع وفى كل يوم يرى أباه وقد ازداد حبا لبكره عيسو وتمنى له كل الخير ..

وهاهي أمه رفقه تخبره بهذا الأمر الجديد .. واحتار ماذا يفعل ..

فنظرت رفقة إليه وقد أدركت مدى ما يكابده ابنها من متاعب نفسية نتيجة لتفرقة أبيه فى المعاملة بينه وبين شقيقه عيسو .. كانت هى تحب يعقوب وكان هو يميل إلى عيسو .

قالت له هادئة وكأنها استقرت على خطة مدبرة محكمة :

- خذ من الماعز جديين واذبحهما واصنع منهما طعاما لأبيك .. حتى يباركك قبل أن يعود أخيك .

قال لها حائرا :

- سوف يكتشف أبى الأمر رغم أنه رجل أعمى لا يرى لكنه يستطيع أن يفرق بيننا بسهولة ويسر .. فعيسو أخى كثيف الشعر فى الصدر واليدين .. ويسهل معرفته من ملمسه .. لن يخفى ذلك على أبى أبدا .. وأخشى أن يكتشف الأمر فأصبح فى حالة سيئة وقد يصيبنى منه الندم ويدعو على بدلا من أن يدعو لى .

- نظرت إليه حزينة وهي ترى ضعفه وتردده وخوفه من أبيه وشقيقه .. وتمنت لو أن الحال تغير وأصبح ليعقوب شجاعة وقوة

ورجولة وفحولة عيسو.. ولكن ليس بالتمنى يصل الإنسان إلى ما يريد وعليه أن يرضى بالأمر الواقع وأن يطوعه لمصلحته فقالت له مسرعة:

- لقد دبرت الأمر فلا تخف ..

وجلس يعقوب مهموما حزينا يرقب ماذا تصنع أمه من طعام وشراب يحبه والده .. ويفكر فى مخاطر هذه المغامرة او المؤامرة التى تدبرها أمه من أجله لأنها تحبه وتريده أن يحصل هو على البركة من أبيه قبل أن يحصل عليها أخيه .

صنعت رفقة كل أنواع الأطعمة الفاخرة والتي يحبها زوجها .. فهى تعرف كل ما يريد . وكل ما يعشق ويحب . ثم نادت على يعقوب وألبسته جلد الجدي على صدره ويديه وأعطته الطعام وقالت ادخل به الآن على أبيك قبل أن يأتى عيسو .

ودخل بالطعام على أبيه يكاد قلبه يذوب خوفا ورهبه .

وجاءه صوت إسحاق ليسأل عن القادم وقد وثق من أنه عيسو .. فهو شاب وبه قوة وحيوتة ونشاط .. وهو صياد ماهر ويستطيع أن يتدبر أمره على عكس شقيقه يعقوب الذى لا يدرى من أمره شيئا ولا يستطيع صد شئ أو تحمل مسئولية أمر

قال الأب فرحا قبل أن يستمع إلى صوت القادم :

- ادخل يا عيسو .. فإنى كنت على ثقة من أنك سوف تنفذ طلبى سريعا .. إقترب منى حتى أعطيك بركتى .

أصيب يعقوب بشئ من الخوف والرهبة وهو يستمع بأذنيه إلى إطراء والده على شقيقه .. ومعنى ذلك أنه على نقيض أخيه .. فحزن فى نفسه حزنا عميقا .. ولكن الحزن شحذ همته وأشعل نار الغيرة والحسد داخله .. وتمنى أن يقول له .. أنه أنا يعقوب .. لكنه تذكر نصيحة أمه رفقة له .. أن يقول إذا سأله من أنت ؟ .. أنا عيسو ..

إن أمه تعرف كيف تدير الأمر لصالحه وعليه فقط أن ينفذ كلامها وتعليماتها طالما سيحصل على حقه وعلى بركة أبيه قبل أن يأخذها عيسو ..

قال فى ثقه :

– إنه أنا يا أبى .. عيسو بكرك .. قد فعلت كما كلمتنى قم وإجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك .

قال إسحاق فرحا بابنه :

– ما هذا الذى أسرعت إليه لتصطاده يا ابنى ؟

– إن الرب إلهك قد يسره لى .

واخذ إسحاق الشك فطلب منه الأقتراب حتى يتحسسه ويتأكد من أنه عيسو صاحب الشعر الغزير على يديه وصدره فهذه هى النقطة الرئيسية فى التفريق بينهما أمام أب أعمى صحيح أن هناك إختلاف فى الصوت .. لكنه ليس بالدرجة التى تجعله شديد التأكد ممن يحدثه منهما .. لابد من لمس الأيدى والصدر .. فيعقوب أجرد أملس الجد ليس به من شعر على ذراعيه وصدره على عكس أخيه .. فهو غزير الشعر كثيفة لدرجة كبيرة وكأنه شعر خروف أو جدي ماعز .. وكأن عيسو قد أخذ نصيب أخيه من الشعر إضافة إلى نصيبه هو .

تقدم يعقوب إلى أبيه فجسه ولمس صدره ويديه وتحسس الشعر الغزير بهما ..

وتملك الشك الأب وقال :

الصوت يشبه صوت يعقوب .. لكن اليدين يدى عيسو .

لكن أمره لم يستمر طويلا فقد استقر الأمر فى قلبه بأن الذى أمامه هو عيسو وليس يعقوب والشعر الغزير فى يديه يؤكد ذلك .. على الأقل لرجل لا يرى ولا يبصر وفقد نعمة النظر .. واراد أن يتأكد مرة أخرى وأخيرة قبل أن يعطيه بركته فقال :

– قدم لى الأكل .. فما أجمل أن آكل من صيد إبنى وحتى تباركك نفسى .

– فقدم الطعام فرضى الأب عن إبنه وسأله أن يقترب منه ليباركه ويقبله .

– فتقدم يعقوب فرحا .. فقد جاءت اللحظة التى ينتظرها وأمه رفقة من سنوات طويلة .. وأسرع إليه يقبله .

فتحسسه الأب وشم رائحته ثيابه ثم باركه وقال له :

- إن رائحة إبني كراحة حقل قد باركه الرب . فليعطيك الله من ندى السماء . ومن دسم الأرض وكثيرا من الحنطه والخمر .

كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو أمك . ليكــن لاعنــوك ملعونيــن ومباركوك مباركين .

وخرج يعقوب فرحا سعيدا بعد أن نجحت مكيدة أمه رفقة ونال البركة من أبيه إسحاق قبل أن يحصل عليها أخيه عيسو .. وابلغ أمه بـــالخبر السعيد فقبلته ودعت له وتمنت أن ترى له الولد .

وأقبل عيسو فرحا وقد أمسك صيده ليقدمه طعاما لوالده وليحصل منه على على البركة .. ونادى عليه :

- لتأكل يا أبى من صيد ابنك حتى تباركنى نفسك .

- فقال إسحاق متعجبا :

- من أنت ؟

-أنا ابنك عيسو .. بكرك .

فارتعد إسحاق وتملكه الحزن .. وسأل ابنه :

فمن هو الذى إصطاد صيدا وقدمه لى فأكلت منـــه قبــل أن تجــئ وباركته .

وشعر عيسو بحزن عميق وأخذ يصرخ طالبا من أبيـــه أن يباركــه أيضا .. لكنه رفض وقال إن أخيك قد جاء بمكر وأخذ بركتك ..

فسقط على الأرض نادبا حظه مع أخيه . فقد سمى يعقوب لأنه تعقبـه مرتين فقد أخذ بكورتيه ثم أخذ الآن بركته .. وتوسل إلـــى والــده أن يباركه .. وسأله حزينا :

- أما بقيت لى بركة ؟

- أجابه اسحاق محزونا مكدودا .

- إنى قد جعلته سيد لك . ودفعت اليه جميع إخوته عبيدا وعضدتـــه بحنطة وخمر .. فماذا أصنع لك يا بنى ؟

- ألك بركة واحدة فقط ؟ .. باركنى أنا أيضا يا أبى .

فقال له :

– الأرض الجرداء بلا دسم تكون مسكنك . بلا ندى تكون السماء من فوقك . وبسيفك تعيش . ولأخيك تستعبد .

وأخذ الغضب والحقد بنفس عيسو تجاه أخيه يعقوب وصمم على قتلـه حتى يتخلص منه وينتقم لنفسه . وعلمت أمه رفقة بأمره فأبلغت يعقـوب بالأمر وطلبت منه أن يهرب إلى لابان خاله . الذى يقيم فى حاران وأن يتدبر أمره ويتزوج من ابنة خاله .. حتى تستقر الأمور ويهدأ عيســـو ويتقبل الأمر وتعود الأمور إلى سابق عهدها .

كانت جميلة رقيقة . وكأنها عصفور صغير يغرد بين الأشجار وينتقل من غصن إلى غصن حاملا معه عطر الزهور وأريجها وكانت تجـرى وتلعب وتلهو مع الأغنام .. فتطارد هذه وتهش تلك وتعيد أخرى إلـــى القطيع .. واذا رأت شجرة ونخيلا وحشائش وأرضا خضـــرة ذهبـت بالقطيع إليه مسرعة .. وتركت الاغنام ترعى ما شاء لها الرعـــى وأن تأكل ما طالب لها الآكل .. وجلست غير بعيد منهم ترقبهم وتحرسهم .. ثم لتستريح بعد تعب يوم طويل ترعى فيه الأغنام من مكان إلى آخر ..

وكانت عينيه ترقبها .. في سعادة .. وشغف وإعجاب بها وبجمالـــها وطولها ونقاء بشرتها وسواد شعرها الطويل المرســل خلفـها ليؤطـر وجهها الأبيض الغض وقد لسعت أشعة الشمس خديها فازدادتا احمـرار مثل شفتيها ..

وتمنى في أعماق نفسه أن تكون بنت خاله مثل هذه أو علـــى الأقـل مقاربة لها أو شبيهة بها فسوف يرضى بها ويحمد إلهه وإله أبيه إسحاق وإبراهيم على ما أعطاه .

واسترخى يستجمع ذكريات رحلته وما حدث له فيها .. ففـــى مدينـة (حاران) إيليا بيت الله والتى آمنت بدين ابراهيم من قبل بحـــث عــن مكان هادئ ينام فيه . فتوسد حجرا ونام ورأى فيما يرى النـــائم سـلما منصوبا إلى السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه وقد اسرى الله به وأطلق عليه لقب إسرائيل - أى الذى أسرى إيل (الله) به وجعلـــه نبيـا مـن الصالحين .

وفرح يعقوب بهذا الاسم الجديد . فقد كان عمه اســـماعيل أول مـن نسب إلى الله فسمى (اسما - عيل) أى من سمع الله دعاء أمه وأبيه .. وهو الآن ينال هذا الشرف الذى ناله عمه من قبل فنسب إلـــى الأيـل ويصبح اسرائيل .

وهو الآن فى طريقه إلى بيت خاله ليخطب ابنته ويعمل على تدعيـم روابط الأسرة كما أوصاه أبوه لدرجة أن أخاه عيسو العيص خرج هـو

أيضا - إرضاء لوالده - إلى حيث يقيم عمه اسماعيل بمكة ليتزوج من ابنته محلة ..

استجمع اسرائيل (يعقوب) ذكرياته وهو ممدد على أرض مدينة فدان آرام حيث بيت خاله يستريح من وعثاء السفر ويأخذ قسطا من الراحة في فضاء الله الواسع وحتى يرتب أفكار ويستجمع ما شرد منها وما أوصته أمه به إن هو وصل اليها .. ثم ماذا سيقول له وهو لم يره من سنوات طويلة ولا يعرف عنه خبرا وهم لا يعرفون عنه شيئا أو عن أسرته اللهم إلا بعض ما تنقله قوافل المسافرين والتجار بين البلدين ..

راحت عيناه تبحثان من جديد عن الفتاه الحلوة التي رآها من قبل تسوق قطيع الاغنام أمامها وتلاطفه وتداعبه وكأنها ترفق به وتحنو عليه وتعطيه من حبها ورعايتها ما تعطيه أم لابنها ..

كانت مازالت جالسة هادئة وكأنها تفكر في الكون وما حولها من جمال وجلال فأطلقت لفكرها العنان كما أطلقت لأغنامها العنان وتركتهم يلهون ويمرحون من حولها ..

ووقع نظرها عليه .. والتقى مع نظراته ..

وكأنها كانت تعرفه من قبل .. سألت نفسها : أين رأته .. ؟ .. وأين عرفته .. ؟ .. احتارت في أمرها فسكتت .

ثم أبعدت نظراتها بعد أن رأته منجذبا إليها يحدق فيها وكأنه يريد أن يقول شيئا.

قالت تحادث نفسها :

- لكن شكله غريب .. فهو ليس من شباب مدينة فدان آرام ولابد انه عابر سبيل إتخذ من هذا المكان استراحة له حتى يكمل طريقه ..

وانشغلت بأمر قطيعها والذي بدأ يتباعد عنها فلحقت به قبل أن يتفرق منها داخل المزارع .

وجاءه صوت نزاع حول البئر القريبة منه ..

كانت مجموعات الشباب تحاول رفع حجر كبير يغطى البئر حتى يتمكنوا من سقى غنمهم ..

فقد جاء موعد العودة إلى البيوت ..
ووجدها فرصة لكى يسأل هذه المجموعات الكبيرة عن بيت خالـــه .. فلابد أن أحدا منهم يعرفه ..
وأشار شاب من بعيد إلى الفتاه الحلوه التى أسرته بجمالها وقال :
ها هي ابنته راحيل ترعى الغنم .. اذهب إليها وستأخذك إلــى بيـت أبيها .
– كادت الفرحة أن تنتزع قلبه من بين ضلوعه .. فما كان يتصـــور أن هذه الفتاه الجميلة والتى تمنى لحظة قرب منها هى ابنـــة خالــه .. وستكون زوجته أن شاء الله .
واقترب منها .. واقتربت منه بعد أن سمعت حديثه مــع الشــاب .. ودار بينهما حديث طويل شرح لها قصتــه وحكايتــه وســبب قدومــه إلى هنا ..
ثم سألها الزوج بها ..
فأومت فرحة .. وأسرعت بالدخول إلى البيت .. كانت إيماءتها تعنـى الموافقة .. وتشجع على طلب الزواج بها من خاله ..
ورحب الرجل .. وطلب منه أن يخدمه سبع سنين كمهر لها بعدهـــا يمكن له أن يتزوجها ..
وانقضت السبع سنوات .. وأقيمت الأفراح والزينات ودخل يعقـــوب (اسرائيل) إلى عروسة فرحا .. فقد تحقق الحلم الـــذى ظـل سـبع سنوات كاملة يعمل عند خاله من أجله ولكنه لم يكد يرفع عن وجهـــها الغطاء حتى أخذته الرجفة فلم تكن هى العروس راحيل .. انما كـــانت أختها الكبرى الدميمة
(لئية) .. سأل خاله فأجابه أن هذه عادتهم لابد أن تـــتزوج الفتـــاة الكبرى أولا قبل الصغرى .
قـــال
لكنى أحب راحيل .. وعملت سبع سنوات مـــن أجلـــها مـــن أجـــل الزواج بها ..

قال له في هدوء شديد وقد شعر بشئ من السعادة بعد أن نجحت مكيدة زوجته وخطتها في ترويج إبنتها الكبرى حتى لا تظل معهم بعد زواج راحيل الجميلة والتي يتودد اليها كل شباب المدينة وأصبح أمر زواجها هين بعد التخلص من (لئية)

قال :

إعمل عندي سبع سنوات أخرى أزوجك بها راحيل .

وقبل مكرها .. فقد كان يحب راحيل وتحمل كل هذه السنوات من العمل الشاق من أجلها وكم حلم بها في بيته تحنو عليه وتمنحه عطفها وحنانها وشوقها.

وبعد أربعة عشرة عاما .. تحقق حلمه بالزواج من راحيل .. وعاد إلى أهله مع زوجتيه وكانت حبيبته راحيل هي أم أحب الأبناء إلى قلبه : يوسف وبنيامين .

وقد ولدتهما بعد طول عقم حتى من الله عليها بهما وماتت ودفنت في بيت لحم ونصب يعقوب عمودا على قبرها مازال موجودا حتى اليوم .

وقد أنجب يعقوب اثني عشر ولدا أصبحوا فيما بعد أسباط بني اسرائيل وتفرع من كل واحد منهم فروعا كثيرة .. وقد جاءوا مع أبيهم يعقوب إلى مصر بعد أن دعاهم يوسف عليه السلام للإقامة معه في مصر والتمتع بخيراتها خاصة وأن مجاعة كبيرة حلت بالشام وكان عددهم جميعا سبعين نفسا .

ومات يعقوب على أرض مصر . وحمل يوسف عليه السلام جثمان أبيه إلى أرض فلسطين حيث دفن هناك إلى جوار زوجته راحيل في بيت لحم .

وهكذا شاءت إرادة الله أن تنجح مكيدة رفقة زوجة اسحاق عليه السلام في أن يحصل ابنها يعقوب (إسرائيل) على بركة ودعاء أبيه وأن يتزوج من ابتي خاله وأن ينجب منهما نسلا يكون منه يوسف عليه السلام ثم موسى وهارون عليهما لسلام ..

ولله في ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو .

زليخا .. امرأة العزيز

من المؤكد أن قصة يوسف مع امرأة العزيز تعد أشهر قصة في التاريخ الإنساني لمكيدة المرأة ومؤامراتها ضده لكي تخضعه لسطوتها وسيطرتها ..

فالمرأة جميلة .. ذكية .. قوية . لها سلطان ونفوذ يمكنها من فعل ما تريد في الوقت الذي تريد .

ويوسف أكثر منها جمالا ورجولة وفتوة ويخضع لإمرتها وسطوتها وهي التي اختارته صغيرا عندما اشتراه زوجها عزيز مصر لكي تربيه وتعلمه وتنشئة تنشئة ترضاها وتهواها وكما تريد فقد نظرت إليه وتفحصته وأدركت أنها سنوات قليلة يبلغ بعدها عتبات الرجولة والفحولة ويصبح ملك يديها ..

وبين القوتين الجنسية والإنسية والقوة الروحانية المشبعة بالطاقة الإلهية .. حدث الصراع ..

وبدأت زليخا زوجة عزيز مصر تعد خططها لإخضاع ذلك الفتى الشارد حتى يعود إلى رشده وإلى أحضانها وبين ذراعيها وليكون تحت طلبها ..

وكان الفتى الوسيم والذى أعطى شطر الحسن - كما جاء في حديث الاسراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم - أيديهم بها .. لو لا أن تداركته رحمة من الله .

إشتاقت لأن تكون امرأة تمارس ما تمارسه الزوجات فقد كانت محرومة من حقها كأنثى وكزوجة .. ولم يكن زوجها (أطفير بن روجيب) عزيز مصر ووزير ماليتها على قدر من الرجولة يناسب مركزه ومنصبه .. فلم يكن له منها سوى الاسم .. كان عنينا .. وكانت هي يحرقها الشوق إلى الرجولة .. لكن منصب ومركز زوجها وأخلاقها .. كل ذلك منعها من إفشاء سره أو الظهور أمام نساء الأغنياء وكبار القوم من صويحباتها بمظهر الضعف ومنعتها عزتها وكرامتها من أن تطارد رجال الحاشية ممن كانوا يتوددون ويتقربون إليها بشتى الطرق .

وحولتها المطاردات إلى متحفزة لأى هجوم مباغت عليها واستنفرت داخلها كل ثورة الأنثى وأحالت ضعفها قوة فى مواجهة مئات العيون النهمة اليها وإلى جمالها .. حتى يئسوا منها وأعتقدوا أن العزيز يملكها جيدا كما يملك الفارس الماهر زمام حصانه .

لكن كل مقاومتها طوال هذه السنوات العجاف انهارت فجأة أمام جمال ورجولة هذا الشاب يوسف .. وتمنت لحظة وصال منه .. لحظة رضاء وسعادة وأن تمنحة ما لم تمنحه من قبل لرجل .

تمنت أن يمسها لتكتمل . لكنه لم يفعل . هرب منها . بحثت عنه فى كل مكان لكنه كان قد اختفى ..

سألت حارسها .. فأخبرها يسرها بكلمات هامسه :

– إنه يصلى .

سألته ملهوفة :

لمن يصلى .. هل هناك امرأة يصلى لها ..

قال خائفا :

يقول إنه يصلى لله رب العالمين .. رب إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب .. ومن قبلهم آدم وحواء .. وان ربه هو الذى خلق السموات والارض وأعطانا الخير والزراعة والمياه وجعل منها كل شئ حى ..

هذا كلام عجيب .. لم نسمع به من قبل .. ربما من سنوات طويلة منذ أن كان فى مصر ابراهيم وزوجته سارة وهاجر المصرية .. ومن قبله أوزوريس أو إدريس .. وكل هؤلاء قالوا كما يقول يوسف وفعلوا ما يفعل يوسف .. وإذا كان الله يفعل ذلك .. فماذا يفعل فرعون إذا .. ؟

ثم بشئ من الحذر والخوف قالت له : أريد أن أراه

– سيدتى !!

اسمع كلامى .. هذا أمر .. أريد أن أرى ماذا يفعل هذا العبد فقد يكون متآمرا أوجا سوسا أو يؤدى أعمالا تضر سيدك وتوقع بمصر الأذى .. أو قد يكون متآمرا على عزيز مصر وملكها ..

سارت خلف حارسها حتى وصلت إلى مكان خفى بين أشجار الفاكهة تخفى فيه يوسف لكى يؤدى صلاته وعبادته ..

نظرت إليه وأطلت النظر حتى نسيت الدنيا وما فيها حتى الحـــارس الواقف بجوارها .. تمنت أن تعانقه لكنها لم تستطيع .. كرامتها ســبقت مركزها في عدم طاعة رغابتها والخضوع إلى أومراها . سيطرت على نفسها وتأملته .

كان يناجي ربه ويرفع يديه إلى السماء ويطيل الدعاء وتنهمر دمــوع حارة من مقلته .. وكأنه أرتكب إثما عظيما .. ثم سجد علــــى الأرض وقال كلمات لم تستطيع فهمها أو معرفتها .. لكنها تمكنت أخـــيرا مــن التقاط بعض منها كان يدعو ربه قائلا :

- اللهم احمني وقوني وشد أزري وأنقذني من ضعفي حتى لا اصبوا إليهن . يا أرحم الراحمين أنت ربي ورب المستضعفين فخذ بيدي .

تملكها شعور خفي لا تعرفه سوى الأنثى بأنه يحتمي بربه منها ومــن تأثيرها عليه واشارت إلى حارسها أن يتركها وينصرف لكنـــه رفــض فنظرت إليه نظرة جعلته يطوى الأرض تحته من شدة عدوه .

كانت تريد أن يكون معه في هذه اللحظات وحيده .. فحديقة القصــر كبيرة متسعة وبها خفايا كثيرة لا يعلمها إلا هي .. وراودتها أحلامـــها بأن يحدث شئ .. فربما يرضى ويلين ..

اقتربت منه .. وشعر بها فنظر إليها وكأنه يتوسل إليها أن تتركه فــي حاله . لكنها كانت تقترب أكثر حتى التصقت به فشعر بقشعريرة تــهز جسمه فأبتعد قليلا مستعيذا بالله ..

سألته :

- ماذا كنت تفعل .. ؟

- أصلي .

- لمن .. ؟

- لله الواحد الأحد الذى خلقنا وخلق هذا الكون .

- أوزوريس !!

- إله إزيس وأوزوريس وكل مخلوقات الأرض .

هذا كلام سمعناه من أجدادنا قالوه عن إبراهيم عندما زار مصر مع زوجته سارة وتزوج من الأميرة المصرية هاجر ثم لم يعد أحد يقول به من بعد ذلك .
وإنه جدي الأكبر .. وكان يدعو إلى عبادة الله .. وأن للكون إله واحد .. وأن الإنسان سوف يحاسب في العالم الآخر بعد موته على ما فعل .. فإن كان خيرا دخل الجنة وأن كان شرا عذب في النار ..
وهذا أيضا ما يقوله كهنة مصر .. وما نعرفه وستجده مرسوم على جدران معابدنا في كل مكان .. ولهذا فنحن نشيد مقابرنا قوية متينة حتى نستطيع أن نعيش فيها بعد موتنا وحسابنا .. ونضع معنا الحبوب والخبز وكل ما نشتهي حتى الذهب والمشغولات لكي نرتديها من بعد البعث .
لم يعلق على كلماتها . فقد خاف إن هو زاد في كلامه فقد يفتضح أمره وسره وتسوء الأمور وهو يحاول أن يطفئ لهيب اشتعالها مع سيدته ..
أدركت ما يدور في خاطره فاقتربت منه أكثر وقالت متوددة إليه حالمة به ساعية إلى قربه :
ما أجمل شعرك .
هو أو شئ ينتثر من جسدي .
وما أجمل عينيك .
هما أول ما يسيل في الأرض من جسدي
وما أحسن وجهك .
التراب سوف يأكله .
لم تجد في إجابته عليها ما يغريها باستمرار الحديث أو يشجعها .
على تحقيق مطلبها .
أخذت ترقبه وهو مطرق إلى الأرض لا ينتظر إليها ..
لمحت في خاطرها فكرة جزئية فقد كان زوجها بعيدا عن القصر والمكان خال وآمن ويتيح لها فعل ما تريد دون خوف أو حذر من أحد .

أشارت إليه أن يتبعها حتى دخلت مخدعها .. وبدأت تتجرد من كل شئ ودعته إليها : هيت لك .

وكاد أن يفعل .. لو لا أن رأى صورة وخيل إليه أنه يقول له : أبيه يعقوب تحذره مما سيفعل ومن موقعته لها إن مثلك ما لم توقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق ومثلك إن واقعتها مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يقدر أن يدفع عن نفسه ومثلك ما لم توقعها مثل الثور الصعب الذي لا يعمل عليه .. وأخذه بعض ضعف سرى في جسده وأوشك على الاستسلام لها .. فأخذ في حل سرواله واقترب منها ليشبع رغبته ويطفئ لهيب الشوق المشتعل في أعماقها .

فإذا به يرى وكأنه يدا ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها : وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما يفعلون ففر منها هاربا وقد أخذه الخوف والرعب .

لكنها سارعت إليه قبل أن يفر منها وأقبلت عليه تفك من إزاره فتملكه بعض ضعف وكاد أن يستجيب لها . فإذا بالكف تظهر بينهما من جديد لتحول بين وقوع الآثم وما يغضب الله .. وقرأ مكتوبا عليها : " ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا "

فأبتعد عنها فارا بنفسه .

لكن شوقها كان قد أشتعل والرغبة الجارفة قد تملكتها فارتمت عليه وكاد أن يهم بها لو لا أنه سمع صوتا يأتيه من السماء يقول له : أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء .

فأصابته رعشة وجرى بعيدا في ركن قصي من الحجرة وإذا بتمثال كبير لأحد الآلهة منصوب فوق مكان عال .. وما أن رأته زليخا حتى إستترت ودارت عورتها خشية منه .

فقال لها يوسف : لماذا فعلت ذلك

قالت : استحي أن يراني هكذا

قال لها يوسف : أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه . ولا استحي أنا من الله خالق كل شئ .

وجرى نحو الباب يبغى الهروب . لكنها أمسكت من دبر وشقت قميصه تحاول منعه من الخروج من الحجرة وأرضاء شهوتها . وكانت كالمجنونة فتعلقت بقميصة حتى تمزق كله من خلفه .. فتركه لها وهرب إلى الباب وإذا بسيده من أمامه .

أخذته المفاجأة . فقد كان يحبه حبا كثيرا . وأوصى سيده زوجته به عندما جاء إلى قصره صغيرا بعد أن تركه إخوته ، وألقوا به فى غيابات الجب لكى يتخلصوا منه ومن حب أبيه يعقوب له ولشقيقه الأصغر بنيامين . فقد كانا أبناء زوجته وحبيبته راحيل والتى أمضى من أجلها أربعة عشر عاما يعمل عند أبيها حتى يتزوج منها ، وجاء به بعض السيارة بعد أن عثروا عليه فى البئر وباعوه لعزيز مصر الذى أعجب به وتفرس فيه فتوقع منه خيرا فأوصى به امرأته قائلا لها اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

مازال يوسف يتذكر هذا الرضيع من سيده فكيف يؤذيه فى أهله وزوجة . لكنه لم يكن يملك من الأمر شيئا وأصبح الأمر فى يد زوجته وما سوف تقوله بعدها يتقرر كل شئ .

ووقف يوسف صادقا . حزينا . لا يعرف ما يقول والدنيا كلها تدور من حوله وهو يستمع إلى كلمات امرأة سيده فإذا بها قد تماسكت وألقت بالتهمة عليه وقالت لزوجها :

ما جزاء من أراد بأهلك السوء .. إنه السجن أو القتل

قال يوسف :

بل هى التى راودتنى عن نفسى فأبيت ورفضت حبا لك وتقديرا لصنيعك ومعروفك وحسن معاملتك لى .

قالت :

أنه يكذب .. فما راعى حرمة البيت ولا شرف سيده وأراد أن يلوثه ولم يتذكر ما فعلناه له منذ حضوره صبيا .. لقد خان الأمانة ولابد من عقابه .

قال يوسف مدافعا عن نفسه :

بل هى التى راودتني عن نفسي .. وهربت منها فشقت قميصي مـــن دبر وأنا أفر من أمامها .

واحتار العزيز فى الأمر .. فأيهما يصدق .. إنه لـــم يجـــرب علـــى يوسف من قبل خيانة الأمانة أو عمل الفحشاء والسوء .. بل كان نعـــم الابن والعبد .. وهو أيضا لم يجرب على زوجته الخيانة من قبل وكانت نعم الزوجة الوفية والتى لم تكشف سره وضعفه وعدم قدرته على تأدية واجباته الزوجية كرجل .. لقد حافظت على كل شئ ولم تعط فرصـــة لأعدائه للنيل منه .

فأيهما يصدق :

وكان هناك طفل صغير رضيع - كما يقول الرواة - شاهد ما حـدث فانطقة الله عز وجل لكى يروى للعزيز الحقيقة ويبرئ يوسف مما كـاد أن يتعرض له ..

وقال ابن عم لزليخا كان شاهدا على الحادث ومشهودا له بالحكمـــة : أن كان قميصه قد من قبل فصدمت وهو من الكاذبين وإن كان قميصـــه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين .

وتأكد عزيز مصر من خيانة زوجته . لكنه أيقن أنه لم يحدث شـــئ بينهما . وطلب من يوسف ألا يخبر أحد بما حدث حتى لا ينتشر فـــى المدينة . وأمر زوجته بأن تستغفر لذنبها حتى تذهب عنـــها خطيئتـــها وتكن من الصالحين .

وذاع الخبر فى المدينة بأن زوجه العزيز تـــراود فتاهـــا . وكـــانت زوجات الساقى والخباز والكاتب وصاحب السجن والحاجب هن سـبب ترويج الحديث ونشر القصة بين نساء المدينة .

وأرادت زليخا أن تنتقم منهن فقد كانت مؤمنه بأنهن إذا رأينه فسوف يصيبهن فزع شديد من حلاوته وجمال شكله .

ودعت أربعين امرأة من كبار القوم وممن ساهمن فى نشر الحديـــث بين النساء فى المدينة . وأعدت لهن متكأو ألونا كثـــير مـــن الطعـــام والشراب وأعطت كل منهن سكينا .

وأشارت إلى يوسف أن يخرج إليهن لخدمتهن .. فلما رأينه أكبرنه وهالهن جماله وحلاوته ورجولته . فقد كان أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الحلقة غليظ الساقين والعضدين والساعدين خميص البطن أقنى الأنف صغير السرة . وكان بخده الايمن خال أسود يزين وجهه وكان بين عينيه شامة بيضاء تزيده مهابة وحلاوة .

وأخذت النسوة فى تقطيع أصابعهن بالسكين بدلا من قطع الطعام بعد أن شغلهن بجماله وحسن قوامه وأسرهن بنور وجهه الذى يضئ المكان من حوله .

فلما رأت زليخا فعلهن والدماء التى سالت من أيدهن قالت لهن شامتة:

فهذا الذى كنتن تلومننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فأبى وأن لم يفعل ما أريده منه فسوف أضعه فى السجن جزاء رفضه .

وبكت زليجا لزوجها وهى تقول إن يوسف قد فضحها فى المدينة وأنه لم يعد من حديث لنسائها إلا عن ذلك ولابد من وضعه فى السجن حتى يعرف الناس أنها بريئة ..

ودخل السجن وخرج منه بعد أن فسر للملك رؤياه فقد كانت معجزته الألهية هى تفسر الرؤيا .. وأصبح وزيرا على خزانة مصر ..

ومات عزيز مصر .. وتزوج يوسف من زليخا - كما بقول بعض الرواة - بعد أن أعاد الله إليها حسنها وجمالها تكريما ليوسف ولصبره ومقاومته إغرائها من قبل . وأنجب منها ولدين هما : أفرايم ومنسا .

ودعا أبواه وأخوته وأهله للاقامة معه فى مصر . ومات عن مائة وعشرين سنه . وقيل إن أهل مصر رفضوا دفن جثمانه فى الأرض ووضعوه داخل صندوق فى نيل مصر حتى تحل بها بركته بعد وفاته إلى الأبد .

وأصبحت حكاية زليخا مع يوسف عليه السلام قصة تروى إلى الأبد لتكون عظة وعبرة لمن أراد أن يعتبر .

صفورا .. امرأة موسى

توسمت فيه خيرا بعد أن أعجبها فزكته عند أبيها ، وقالت له :
- استأجره يا أبى .. فإن خير من استأجرت القوى الأمين .
وكان الرجل مدركا لما يدور داخل ابنته من أماني جائشة تكاد تعصف بكيانها كله .. والآمال الحلوة معلقة فى هامتها وتتمنى إدراكها وتحقيقها .
والرجل خبرته السنين وعركته الأيام . وعاش من قبل أيام شباب وسير أحلامها وأمانيها .. وأدرك ما يعترى النفس إذا هوت ورغبت . فالصب تفضحه عيون .
وعيون ابنته لا تهدأ ولا تستقر ولم يأن لها الوقت بعد فى أن تنام .
نظر إليها نظرة خبير .. فالحيرة والقلق يعتصرها وهى لا تدرى ماذا تفعل أو تقول وقد كست الحمرة والخجل وجهها واستحت أن تنظر إليه فأرخت عيونها إلى الأرض تنتظر منه الإشارة .
ونظر إليها .. فإذا هى عروس جميلة أزهرت وتفتحت وأورقت وإكتست ثوب الأنوثة والنضج .. وأصبحت امرأة كغيرها من النساء وان كانت تبزهن طولا وجمالا وحلاوة .
وقال فى نفسه :
وآن لها أن تتزوج .. وان يكون لها رجل وبيت وأولاد .. فهذه سنة الحياة .. وهو فعل كل ما يستطيع فاحسن تربيتها مع أختها .. وعاش لهما .. وحاول قدر جهده أن يوفر لهما العيشة الكريمة والتى تليق بهما وبعائلتهما ومكانة هذه العائلة بين القبائل .
وبذل كل جهده لكى يحافظ على هذه المكانة رغم ما أصابة من وهن وكبر وإشتعال الرأس شيبا ..
أطرق .. بعد أن أخذته الذكرى وسالف الأيام .
ونظرت إليه إبنته وتحركت فى موقفها عسى أن تخرجه من صمته ومن صومعة أفكاره والتى حبس نفسه بداخلها كعادته ليجتر ذكريات الماضى وأيامه .

شعر بها . وأدرك مغذى ومعنى حركتها القلقلة . لكنه تثاقل عن عمد فى الحديث . وتأخر فى إجابته قاصدا أن يستشف ما بداخل ابنته ومـــا ترمى إليه من قولها :

استأجره لنا يا أبى .. فإن خير من استأجرت القوى الأمين .

كيف أدركت ذلك وعلمت به حتى تتحدث عنه .. ومتى كان ذلـــك .. وأين وهل كان بينهما لقاء سابق أو لقاءات متفرقات .

ونظر الرجل إليها وأطال النظر وكأنه يخترق أعماقها ويقرأ ما فـــى رأسها من أفكار.

وأدركت ما يعانيه والدها من أفكار وما يدور فى خاطره وما تحـدث به نفسه ..

فأشفقت عليه . وأحبته أكثر مما أحبته من قبل . فقلقــه دليـل حبــه الجارف لها وكذلك لشقيقتها .. فقد كان دائما أبدا نعم الأب ولم يبخــل عليهما بشئ .. أعطاهما بكثرة ودون حســـاب كـل عواطفــه وحبــه وحرصة عليهما ولم يبخل عليهما بما يملكه من مال .. أن كان هنـــاك مال .. فهو ينفق كل ما يأتى إليه .. ويقرى الضيف ويعيـن المســكين والمحتاج .. وكثيرا ما جاد بكل ماله وطعامه للمساكين وأهل السبيل .. وكثيرا ما باتوا ليلهم وبطونهم خاوية تزأر جوعا فيملأونها بالمـــاء أو بعض بقايا حشائش الأغنام المتناثرة فى البيت .. لكنهما أبدا لم يعترضا على ما يفعله أبيهما بل كانا يحبان ذلك ويتفاخران به بين أترابهن .

وأرادت أن تبث الطمأنينة فى قلبه . قالت له ابنته صفـــوراه تـروى الحكاية من أولها..

كنا قد ذهبنا إلى البئر لكى نروى عطش أغنامنا كما نفعل كل يـــوم . لكن البئر الليلة كانت مكتظة بالشباب والرعاة كل يريد أن يسقى غنمــه .. و كانوا يزاحمون كل من يقترب منهم ويبعدونه وقد يصيبوه ببعــض الخدوش والكدمات ..

فقالت لى أختى (ليا) نبتعد عنهم قليلا حتى لا نصاب بأذى حتى إذا فرغوا من عملهم .. سقينا نحن أغنامنا ..

وجلسنا نرقب تزاحم الرعاة واندفاع الشباب وتحلقهم من حول البئر .. وأدركنا أنه ربما يمضى وقت طويل ويدركنا الليل ونحن مازلنا فى حالنا لا نستطيع أن نسقى الغنم .. فأخذنا حزن عميق .. وخفنا أن يصيبك القلق والخوف علينا إن نحن تأخرنا أكثر من ذلك .

وبينما نحن فى حزننا هذا وتفكيرنا فيما يمكن ان نفعل إذا شاب طويل عريض قوى يتجه نحونا . ويسألنا :

لماذا لا تسقيان أغنامكم ؟

قلت له :

نحن لا نسقى حتى ينتهي الرعاة .. فنحن امرأتان ضعيفتان وأبونا شيخ كبير هرم و ونخاف زحام القوم وعدم احترامهم لضعف النساء فنؤثر أن نظل بعيدا حتى ينتهوا من سقاية أغنامهم بعدها نتقدم نحن لسقاية أغنامنا من فضول حاجتهم وما يبقى من حياضهم .

وما أن أخبرته بذلك حتى ظهرت عليه علامات الغضب وذهب إلى البئر الكبير والذى يغطيه حجر ثقيل ينوء بحمله عشرات الرجال .. فإذا به يرفع الحجر وحدة دون أى مساعدة من أحد ويسقى أغنامنا غنمة غنمة حتى . إرتوا جميعا وشبعوا من الماء كما لم يشبعوا من قبل .

وقد نظر إليه الرعاة والشباب والناس المجتمعون من حول البئر الأخر وقد أخذهم العجب مما رأوا بأعينهم .. واخذوا يتهامسون ويتساءلون عنه .. وعمن يكون .. ومن أين جاء .. وكيف له بكل هذه القوة لم التى يشاهدوها على أحد من قبل .

ولكن أحدا منهم لم يستقر على رأى أو يعرف حقيقته فأخذهم الجهل به والاعجاب بقوته فأصابهم فى مداركهم فوقفوا وكأنهم خشب مسنده أو تماثيل من حجارة كتلك التى يعبدونها .. وخافوا أن يقتربوا منه أو يحدثوه ..

وقدمت منهم مجموعة تحاول أن ترفع الحجر الكبير عن البئر كما فعل هذا الشاب لكنهم لم يستطيعوا .. فنظروا إليه طويلا .. وخافوا الحديث معه أو الأقتراب منه وآثروا الأبتعاد عنه والوقوف فى الطابور الطويل لسقى أغنامهم .. ومازالوا هناك حتى الان والله وحده يعلم متى

ينتهون من ذلك .. ولو لا هذا الشاب القوى الأمين لكنا مازلنا في انتظار دورنا .

تأمل ابنته كثيرا . ورأى علامات الصدق فى كلامها والاعجاب أكثر بهذا الشاب القوى الفتي القادم من المجهول .. وتساءل فى نفسه .. ترى من يكون هذا الفتى الذى قدم صنيعة لإبنتيه دون مقابل .. فزاحم وقاتل ورفع أكبر حجر لكى تسقيان الغنم .. ولم يطلب مقابل ذلك شيئا .. وكأنه لم يفعل شيئا ويقدم لهما صنيعا مازالا يتحدثان عنه حتى هذه اللحظة وقد يتحدثان عنه غدا وبعد غد ..

وشعر شعيب أن الله بعث إليه وإلى ابنته هذا الشاب ليحدث في حياتهم أمرا كبيرا وقد يغير مجرى حياتهم .. الله سبحانه وتعالى أراد ذلك .. فلتكن مشيئة وإرادته ..

نادى على ابنته يسألها :

وهل مازال هذا الشاب عند البئر ؟

قالت فى لهفة وكأنها كانت فى انتظار السؤال :

نعم يا أبى .. فقد رأيته استراح تحت شجرة ونام فى ظلالها بعد أن سقى لنا أغنامنا

إبتسم شعيب .. فما شعر به وأدركه من كلمات إبنته ولهفها عليه أصبح حقيقة مؤكدة - فابنته ليست كعادتها كل يوم . شئ جديد دخل حياتها وغير كلماتها وأعطاها قوة غريبة ونشاطا فى الحركة والسير وفتح شهيتها للحديث الطويل ..

هذا الشاب سيكون حكايته حكاية .

قالها فى نفسه . ودعا الله أن يكون خيرا لها . ثم سألها أن تذهب إلى الشاب وتأتيه به إليه .

ففزت فرحة مثل ظبية وانطلقت خارج الدار إلى حيث يرقد تحت الشجرة بجوار البئر . كان مازال هناك وكأنه ينتظرها ..

مشت إليه على إستيحاء وقالت له :

إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

قال وكأنه لم يفعل شيئا :

لا استحق أجرا . فقد أديت ما يجب أن يقوم بـــه أى إنســان تجــاه الأخرين والذين يستحقون المساعدة .

ولكنك قدمتها لنا دون أن تعرفنا .

ومن يقدم المساعده ويصنع المعروف لا يســأل لمــن .. طالمــا أن صاحبها يستحقها .. ولا ينتظر أجرا مقابلها .

قالت على إستحياء :

أبى يدعوك .. ألا تجيب الدعوة .. هذه من صفات الكرام .

اسعده كلماتها وحديثها وقد أراد من ورائهما أن يملأ عينيه من جمالها وحلاوتها وابتسامتها وأن يستمع إلى عذوبة صوتها وذكائها فى الحديث والكلام .. وتمنى فى نفسه أن تكون زوجته .

وسار من خلفها يتبعها حتى البيت وهبت ريح قوية رفعت من طـوف ردائها حتى منتصفها .. فكره أن يرى ذلك منها واســتعاذ بــالله مــن الشيطان الرحيم .

وسأل الفتاه أن تتبعه هى وأن ترشده إلى البيت وهى من خلفه فـــإذا أخطأ الطريق فعليها أن تلقى عليه حصاة حتى يعرف ويغير مساره ..

وتأسف لها عن ذلك وقال :

إننا بنى يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء .

سرها أن تسمع ذلك منه . فقد صدق حدسها فيه وأنه نبت طيب مــن نبت طيب وداعبت أمانيها الأحلام وأخذتها بعيدا حتى كادت أن تنســى الطريق إلى البيت ليضل هو أيضا معها فألقت إليه بحصاةَ حتى يغــير مساره ..

وكان شعيب فى انتظاره .

نظر إليه وتأمله وتفحصه جيدا فإذا ما قالته له ابنته أقل من الحقيقة .. فهو طويل عريض قوى . لم ير أحدا مثله من قبل وســـره أن يكــون كذلك..

فقد إنتوى أمرا وبيت له وسأله عن حكايته .

قص عليه موسى حكاية هروبه وكيف قتل مصريا بعد أن إستجار به صديقه وكيف أن أحد معارفه أخـــبره بضــرورة الــهروب لأن قــوم

المصرى يريدون قتله والقصاص منه . فخـــرج هاربـا هائمـا فـى الصحراء حتى وصل إلى هذا المكان .

قال له شعيب يطمئنه :

لا تخف . نجوت من القوم الظالمين .

حمد موسى ربه أن أنجاه وهداه إلى هؤلاء القوم وشـعر باسـتقرار نفسى وراحة بال وأنه أصبح بعيدا عن أيدى طالبيه للقصاص منه .

وإذا بالرجل الشيخ يقول له :

إنى أريد أن أستأجرك ثمانى حجج مقابل أن أنكحـك إحـدى إبنتـى هاتين وأن أتممتهم عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك

ستجدني إن شاء الله من الصالحين .

أجابه موسى فرحا وقد شعر بأنه أصبح فى آمان واصبحت له عائلـة جديدة .

قبلت ذلك . والحمد لله الذى هدانى إليكم .

قال له شعيب :

ذلك عهد بيني وبينك . وأيما الأجلين قضيت سواء أمضيت ما إتفقنـا عليه من ثمانى حجج أو زدتها إلى عشر فلا عدوان على والله على مـا نقول وكيل .

وتزوج موسى من صفورا . وحققت أمنيتها بالزواج من ذلك الفتـى القوى الأمين . وحمدت الله أن حقق حلمها ونجحت خطتها فى إستدعائه إلى أبيها لكى يدخل البيت فيعجب بـه وبأمانتـه وشـجاعته وأخلاقـة ..وتصبح هى زوجته .

وفى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصـدق النسـاء فراسة . امرأتان كلتاهما تفرستا في موسى فأصابتـا احداهمـا امـرأة فرعون حين قالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه . والأخرى بنت شـعيب حيث قالت : يا أبت إستأجره أن خير من إستأجرت القـوى الأميـن . وانما قالت القوى الأمين لأنه أزال الحجر العظيم الـذى لا يرفعـه إلا أربعون رجلا . فقال لها أبوها هب أنك عرفت قوته فما أعلمك بامانته . فأخبرته بما أمرها موسى من إستدبارها إياه فى الطريق . فازداد فيهـه

شعيب رغبة . فقال له " إني أريد أن أنكحك أحدى إبنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد ان أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين" فقال موسى : ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على و الله على ما نقول شهيد .و سئل رسول الله (ص) أى الأجلين قضى موسى ؟

قال : أكملهما . وأفضلهما .

وتزوجت صافورا من موسى بذكائها وصدق فراستها .

وقد إختلف الرواة في ابيها . هل هو شعيب النبي أم هو أحد الكهنه أو ابن عمه .

قالت طائفه بأن شعيبا عليه السلام عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى ادركه موسى عليه السلام وتزوج من ابنته .

وقال الحسن البصري :- أنه كان سيد الماء ولكن ليس صاحب مدين وقيل : إنه ابن أخى شعيب النبي . وقيل : ابن عمه . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقيل رجل اسمه (يثرون) كما جاء في كتب أهل الكتاب : يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها .

ومهما اختلفت الروايات في أمر شعيب . لكنها كلها أجمعت على ذكاء ابنته وقدرتها على تمييز الغث من الثمين والرجل الصالح من الطالح فإختارت بصدق فراستها الزوج القوى الأمين .

رحمة .. امرأة أيوب

حملته فوق رأسها وانتبذت به مكانا قصيا . حتى لا يطوله أو يطولها أحد أو يمسها ويمسه بسوء . وجلست به تحرسه بين الأحراش وعلى أطراف الصحراء وفوق أكوام القمامة .

كان زوجها ورجلها وقرة عينها . عاشت معه أجمل الأيام وأحلى الليالي . وكان حارسها القوى الأمين . بسط عليها قوته وهيبته فخاف منها الكل وإحترمها القاصي والداني وحقدت عليها كل نساء قريتها . كان أجمل شباب القرية وأغناها وأقواها . زاده الله بسطة في الجسم والعلم . فكان حكيم أهلها ومستشارها وملاذها . كانوا يلجأون إليه إذا استعصت عليهم المشاكل وسدت من أمامهم الطرق ولم يعد من سبيل إلى النجاه ..

فكان سرعان ما يعرف مكان خطواته إلى الطريق القويم ويدلهم عليها فتزاح الهموم والأحزان عن كاهل صاحبها .. وإذا كل شئ قد أصبح ميسرا سهل المنال . وإذا الظلمات قد إنداحت وفرت أمام الحقيقة والنور.

وأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب حتى أصبح قلبه أهل الأرض يأتون إليه مهمومين محزونين ويتركونه فرحين مسرورين .

كان بلسم السعادة والراحة لكل الناس .

وكانت هى جميلة جميلات القرية . هيفاء بيضاء رقيقة رشيقة خفيفة الحركة . تصارع عليها ومن أجلها عشرات الشباب فى قريتها كل يبغى رضاها والتقرب إليها لكن قلبها كان قد تعلق به وتمكن منه وأصبح فى السويداء .. حتى قبل أن تراه .

سمعت عنه وعرفت كل ما يفعل وما يقوم به من مساعدة للضعفاء والفقراء والمساكين وعابرى السبيل . وإنتشرت الروايات والحكايات عن كرمه واقرائه للضيف حتى تجاوزت الحكايات قريتهم إلى القرى الأخرى المجاورة فأصبح مضرب الأمثال وأعجوبة تروى وتقص وتحكى .فكلما زاد كرمه وقدم إلى ضيفه من غنمه وبقره ما يريد ويفيض عن كفايته فإذا بأغنامه تتكاثر وإذا بأبقاره تتضاعف وإبله تتزايد .. حتى عجب الناس لأمره وهم يرون ثروته تتضاعف وتنمو وتربو

دونما جهد .. فهو يتركها ترعى فى البرارى والمراعى مع غيرها ممن يملكها أقرانه لكنها تعود دائما ممتلئة البطن من خيرات الله وسرعان ما يظهر عليها ذلك ويزداد نسلها ويكبر ضرعها ويكثر لبنها فـلا يبخـل على أحد منها بشيء .. من أراد منها حبة أعطاه حتى تكون نواة لـثروة .. ومن أراد منها لحما أعطاه حتى يأكل ويشبع وتأكل السباع والطيـور .. وهو في كل ذلك لا ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا ..

كل ما يفعله لوجه الله .

، فكل شئ ملكه سبحانه وتعالى . الأرض والناس والحيوانات .

وبكت رحمة على ما فات .. بكت أكثر على ما هو آت .

، فهي لا تدرى ماذا تحمله الأيام القادمة لها ولزوجها أيوب نبى الله إلى بنى إسرائيل .

وتذكرت ما كانت ترفل فيه من سعادة . ارض وثروة عظيمة ومـال وبنون هم زينة الحياة الدنيا .

كان لهم كما جاء فى العهد القديم سبع بنين وثلاث بنـات . وكـانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فـدان بقـر وخمسمائة حماره (آتان) وكان له خمسمائة عبد ولكل عبد امرأة وولـد ومال وكانت له الثنية كلها من أرض الشام سهولها وجبالها .

وكان يرجع نسبه إلى إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام . وكانت أمـه من ولد لوط بن هاران عليه السلام .

وكان من خيرة أهل الأرض نسبا وعزا وجاها وقد جمع كـل زينـة الحياة الدنيا فاعطاه الله الولد والمال وسعة فى الرزق وأغدق عليه مـن الصحة والعافية ما يحسده أقرانه عليها .

وقد بعثه الله إلى قومه فى أرض الشام يدعوهم إلى الهداية وعبادة الله الواحد الأحد . فإتبعه كثيرون وكان له ثلاثة أصدقاء هم أعز أصحابه و أقربهم إلى نفسه وقلبه .

وقد حاول ابليس أن يضله كما أضل كل الأغنياء من قبله لكنـه لـم يستطيع وطلب من ربه فرصة لكى يختبر أيوب .

وبدات المصائب تهبط عليه كما جاء فى كتاب العهد القديم لليهود .

ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمرا فى بيت أخيهم الأكبر إذ برسول يأتى أيوب ويخبره أن البقر كانت تحرث والأتن ترعى بجنبها فهبط عليها اللصوص وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف وقد نجوت أنا وجئت لأخبرك .

ثم فوجى برسول آخر يأتيه يخبره بأن نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان وأكلتهم . وقد نجوت أنا وحدى لأخبرك .

ثم جاءه رسول ثالث ليقول له إن الكلدانيين عينوا ثلاث فرق فهجموا على الجمال و أخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدي لأخبرك .

وجاءه رسول رابع يخبره أن أولاده وبناته كانوا يشربون خمرا ويأكلون فى بيت أخيهم الأكبر فإذا بريح شديدة اقتلعت البيت من جذوره وسقط على أولاده وماتوا جميعا وقد نجوت أنا وجئت لأخبرك .

فقام أيوب وحلق شعر رأسه وخر على الأرض ساجدا لله تعالى وقال :

عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود إلى هناك .

الرب أعطى والرب أخذ فكل شئ ملك لله . يعطي ويأخذ كما يشاء .

ثم أبتلى أيوب فى جسمه فأصابه المرض ثم العفن ثم النتن ولم يعد هناك من يستطيع أن يقترب منه كل الناس هجروه إلا زوجته رحمة وديدان كثيرة ملتصقة بلحمه تنهش فيه وتقتات منه .

حتى أصدقاءه قالوا لابد وأنه عمل ما أغضب الله فإنتقم منه وأصابه بهذا المرض الخبيث.

وإنفض الجميع من حوله ..

الكل ذهب . المال والبنون والأصدقاء ثم الصحة والعافية والجسد ولم يتبق منه إلا كومة لحم نتنه لا ينبض فيه شئ سوى القلب ليخفق بذكر الله واللسان لكى يحمد الله على ما أصابه .

فالمؤمن مصاب . وشديد الإيمان يكون مصابه فادحا . هذه إرادة الله ومشيئته وعليه أن يتقبلها راضيا حامدا شاكر الله .

وكره الناس رؤيته ورائحته الكريهة .. فأجبروا رحمة زوجته على البحث عن مكان قصى تذهب فيه مع زوجها حتى يقضى الله فيه أمر كان مفعولا واتخذت من كومة قمامة مقرا وسكنا لهما .

وتملكها الغيظ مما يحدث حولها . فهؤلاء الناس من جيرانهم واصدقائهم وحتى أقاربهم كانوا لا ينقطعون عن بيتها وحمل كل ما يستطيعون حمله .

واليوم يهربون منها ومن ايوب ورائحته ومن قبل كانوا يلتفون حوله ويقبلون يديه وقدميه وينتظرون منه النصيحه والحكمة .

وإذا بزوجها يقرأ ما يجول بخاطرها ويصبرها على ما أصابها .

ويقول لها :

الغيظ يقتل الغبى . والغيرة تميت الاحمق . ابحثي لنا عن مكان آمن فلن ينسانا الله أبدا .

استمعت إلى كلامه راضية مرضية وحمدت الله على كل شئ وحملته على رأسها بعد أن وضعته فى (قفة) وسارت تبحث عن مكان بعيد . تدراى فيه المريض وتبعده عن الناس وعن الحيوانات الضالة والسباع حتى لا تفترسه إن هى تركته لحاجة لها .

وذهبت إلى القرية تبحث عن عمل تأكل منه هى وزوجها بعد أن نفذ ما كانت تملكه من مال .

وسعى إليها الرجال . عرضوا عليها المال والثروة وأن تترك أيوب . لكنها رفضت وعرض عليها أخرون الزواج بها لكنها أبت أن تترك زوجها المريض وقالت لهم :

تزوجته صحيحا سليما معافى البدن وقوى الجسد عنده مال كثير . فإذا ذهب كل ذلك تركته . والله لن يحدث هذا أبدا .

فيصاب الرجال بالجنون من شدة إخلاصها لزوجها ويحقدون على أيوب المريض ما أعطاه الله إليه من زوجة تحفظه فى غيابه ومرضه .

وتأمرت النساء عليها بعدما شاهدن الرجال يلهثون من ورائها ويعملون كل شئ من أجل التقرب إليها .. وهى صابره مؤمنه تجمع ما تستطيع ويقيم أود المريض وتعود إليه به .. رأجبرنها على بيع شعرها

الجميل إليهن . وباعته صاغرة فما فائدة الشعر ومن كان يعجبه شعرها وتمشطه له وتزينه وتعطره قعيد المرض والفراش ..

واشترت بثمنه الطعام لأيوب .. ورأى أيوب في مرضه ما أحل بزوجته وكيف باعت شعرها من أجله ..

فرفض أن يأكل من ثمن شعرها .. ودعا الله أن يزيح عنه المرض وأن يشفيه ويعيد إليه صحته وعافيته .

وبحث إبليس عن ثغرة ينفذ منها إلى أيوب بعد أن صبر على كل ما أصابه من فقد المال والولد ثم الصحة والعافية ..

ورأى أن ينفذ إليه من خلال زوجته رحمة .

فتمثل لها في صورة رجل وهي تطوف على أبواب البيوت تجمع الصدقات . فقال لها .

أين زوجك يا أمة الله .. ؟

قالت :

هو ذاك يحك جلده من شدة ألم قروحه والتي تسعى فيها الحشرات والديدان .

فلما سمع إجابتها طمع أن تكون كلمة جزع . فوسوس لها مذكرا إياها بأيام السعادة والغناء والراحة والخدم والحشم والأبناء . وذكرها بجمال أيوب وقوته وفتوته ورجولته .

فصرخت وعلم ابليس أنها جزعت وضعفت وأن الفرصة قد واتته ليدخل من خلالها إلى أيوب .. فقال لها :

خذي هذه الماعز واطلبي من أيوب أن يذبحها لي وسيبرأ من مرضه فورا .

- فاسرعت إلى أيوب صارخة تقول له :

- إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك ؟ .. أين المال .. ؟ .. أين الماشية .. ؟ .. أين الولدان .. ؟ .. أين الصديق ؟ .. أين .. ثوبك الحسن ؟.. وأين جسدك وصحتك ؟ ..

ثم دفعت إليه الماعز وقالت له :

إذبح هذه وسوف تشفى وتبرأ مما أنت فيه

فأدرك أيوب أن ابليس لعب بقلب وعقل امرأته فإستعاذ بالله .. وقـــال لها :

أتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبته . ويلك . أرأيت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة والنعيم .. فمن أنعم بها علينا .. ؟

قالت صاغرة نادمة

الله

فكم متعنا بها .. ؟

ثمانين سنه .

قال

فمنذ كم إبتلانا الله بهذا البلاء ؟

قالت :

سبع سنين

قال لها معاتبا مذكرا اياها بما مضى :

ويلك . والله ما عدلت ولا أنصفت ربك . ألا صبرت فى هذا البـــلاء الذى إبتلانا به الله . ثمانين سنة كنا فى الرخاء . والله لئن شـــفاني الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتينى أن أذبح لغير الله تعالى .

ثم قال غاضبا :

وطعامك وشرابك الذى تأتينى به على حرام لا أذوق مما تأتينى بـــه شيئا بعد أن قلت هذا . فأغربي عنى حتى لا أراك .

وطرد زوجته فخرجت باكية نادمة .

وشعر أيوب بما أقدمت عليه امرأته وما صنعته فخر الله ساجدا .

وقال :

رب إنى مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

فسمع صوتا يقول له :

قد إستجيب لك . إركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .

فركض برجله فنبعث ماء . فأغتسل فذهب عنه كل مرضه . واذهـب الله عنه كل داء وسقم وعاد إليه شبابه وحسنه أجمل مما كان وأفضـــل مما مضى .

ثم ضرب برجله فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء إلا خـــرج وقـــام صحيحا معافى وقد إكتسى حلة جديدة .

وعادت زوجته إليه بعد أن أشفقت عليه وتذكرت أنه مريض ولا أحد يقدم إليه الطعام أو الشراب . وندمت على ما كان منها .

وأخذت تبحث عنه فى المكان الذى تركته به فلا تجد له أثرا فتـــأخذ فى الركض شمالا ثم جنوبا وشرقا وغربا دون فائدة واشتد بها الخـوف عليه من أن يكون قد أكلته السباع فأخذت تصيح وتولول وتنادى عليه .

وكان هو يرقبها سليما معافى من مكان قريب ويشاهد جريها وجزعـــها وخوفها عليه فيشتد وجيب قلبه ويحن إليها . لكنه آثر أن يتمادى فيمـــا يفعل قليلا حتى يستغرقها الندم على ما فعلت واستمعت إلى قول إبليس.

وبعد ان أخذها التعب رأته واقفا فى حلته الجديـــدة فنـادى عليـــها يسألها:

ما تريدين ياأمة الله ؟

قالت باكية :

أريد ذلك المبتلى الذى كان منبوذا على هذه الكناسة ولا أدرى أضـاع أم أكلته السباع أم أين ذهب .

قال يختبرها :

وما كان منك ؟

فبكت بكاء شديدا وقالت :

– زوجي . وقرة عينى . فهل رأيته ؟

قال لها :

وهل تعرفينه إذا رأيته ؟

قالت متأكدة مما تقول :

وهل يخفى على زوجى .

أخذت تنظر إليه وتتطلع إلى وجهه وتقول : كأنه أنت . سبحان الله . ما أشبه خلق الله بك عندما كان صحيحا .

قال لها ضاحكا :

فأنا أيوب . أمرتني أن أذبح لإبليس . لكنــى أطعـت الله وعصيـت الشيطان فرد الله على صحتي وعافيتي .

وشبابي ومال وولدي وكل ما كنت أملك .

وأمر الله أيوب أن يفى بضرب امرأته مائة سوط وأمــره أن يـأخذ ضغثا من الشجر يضم مائة قضيب خفيف لطيف ويضربــها ضربــة واحدة . وبذلك يبر بقسمه ويكون رحيما مع زوجته والتى عاشت معــه فى السراء والضراء وكانت نعم الزوجة المخلصة الوفية .

وقيل أن أيوب مات بعد ذلك عن عمر يناهز ثلاث وتسـعين سـنة . ولكن قصته وحكاية زوجته ووفائها وإخلاصها له مازالت باقيــة حيـة يضرب بها الأمثال حتى نهاية العمر .

امرأة بلعام .. ضيعت منه النبوة !!

بعد أن خرج موسى من مصر إلى سيناء .. ذهب إلـــى فلســطين .. وخاف أهلها من موسى عليه السلام وجيشه وأتباعه .. وقالوا إنه سوف يدمر مدينتهم كما دمر كل المدن التى مر عليها من قبل ورفضت قبــول دعوته والدخول فى ديانته .

فلجأوا إلى نبى الله بلعام لكى يدعو عليه فيصيبه وجيشه ما أصـــــاب غيره من قبل من موت وخراب .

فقد كان بلعام أحد أنبياء بنى إسرائيل صـــاحب دعــوة مســتجابة .. وكانت هذه هى المعجزة التى إختصه الله بها ..

وجاءه قومه فزعين مسرعين يأكلهم الخوف ويسرى فــى أوصالـــهم الرعب وتكاد تتوقف أنفاسهم وهم يسمعون كل يــوم عــن إنتصـــارات موسى عليه السلام وجيشه واتباعه ..

فقد أصبحوا على بعد خطوات منه ..

قالوا لبلعام :

إن موسى رجل من حديد لا يهزم أبدا ومعه جنود كثيرة . وقد جـــاء لإخراجنا من بلادنا أو يقتلنا أو يتخذ منا ومن نسائنا وأولادنا سبايا لـــهم .. وأنا قومك وبنود عمك وجيرانك وليس لنا منزل . وأنت رجل مجاب الدعوة فادع لنا الله أن يرد عنا موسى وجيشه .

فقال لهم :

ويلكم .. هذا بنى الله ومعه الملائكة والمؤمنون .. فكيف أدعو عليـهم وأنا أعلم من الله ما أعلم .. وان فعلت ذلك ذهبت دنياي وآخرتى ..

فتجمع عليه قومه يستعطفونه أن يرحمهم من مذلة الهزيمة والأســـر والعبودية .. وقالوا له :

هل ترضى لاهلك أن يصيروا ســبايا ؟ .. وهــل ترضـــى لنســائنا وزوجتك أن يأخذها قوم موسى .. ؟ .. وهل توافــق أن يذبــح أهلــك وأطفالك ويباد شعبك وناسك في يدك فلا يبقى منهم شيئا سوى الذكــرى السيئة لهزيمتهم وذلهم كما نسمع في الحكايات والقصص المأثورة عـــن الأجداد ..

إن شرف أهلك وناسك في يدك .. إما أن ترفع منه وتجعله عايا مشرفا على مدى التاريخ وإما أن تهبط به الى الحضيض ويصبح سبة في جبين الأجيال القادمة ..

ثم فى تذلل وانكسار .

أنت تملك رفع كل هذا عنا .. فقط أدع على موسى وقومه بالهلاك فيستجيب الله لك .. فإنك صاحب دعوة مستجابة .. وقد جربنا عنك ذلك من قبل .

لكنه لم يستجب إلى طلبهم .. وأخذ يمعن التفكير فيما يمكن أن يحدث له لو خالف أمر ربه .. فقد إختاره الله ليكون أحد أنبياء بنى اسوائيل . وكان عنده اسم الله الأعظم فكانت دعوته مستجابة .. بشرط أن تكون فى الخير وليس فى عمل الشر .. وأن تكون ضد لص أو قاطع طريق أو إنسان شرير .. أما أن تكون موجهة إلى نبى ورسول إختاره الله وعرف به من قبل .. فهذا هو المنكر والشر كله ..

وأمام ضغط اهله وحزنهم وخوفهم من المجهول القادم لهم قال لهم :

دعونى استشير ربى فيما أفعل .. فإن أشار على وأمرنى بالدعوة عليه فعلت .. وأن نهانى عن ذلك إمتنعت .

ولم يكن امامهم سوى قبول الأمر عسى ان يتحقق هدفهم ويصلون إلى ما يريدون .. وان يكون رب بلعام معهم وليس عليهم .

ونام بلعام .. وكان من عادته أن يؤمر فى المنام - كما قال ابن عباس ابن إسحاق والسرى والكلبى وغيرهم - وجاءه الأمر فى المنام ألا يفعل ذلك اطلاقا.

فاخبر قومه بما حدث له .. فلم يقتنعوا بما قال .. وخيب أملهم الذى كان يرجونه منه فى القضاء على موسى والمؤمنين معه قبل أن يدخلوا ديارهم ويصبحوا من فوقهم ومن أسفل منهم ويأتيهم الموت من كل مكان ..

وتكاثروا عليه يرغمونه على مراجعة ربه مرة ثانية ..

فقال لهم :

قد آمرت ربى فلم يجب ..
فوجدوها فرصة لكى ينفذوا إلى نفسه الضعيفة وقالوا له :
لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما فعل فى المرة الأولى .
فلم يجب .. وشعر الناس أنهم تمكنوا من فتح ثغرة فى إيمانه المطلق .. وأن الشيطان قد عشش فى أعماقه وبدأ يجد له مكانا فى داخله يبدأ منه حربا يضعف بها من قوته وإيمانه .. ويسهل عليهم الطريق إليه .
وتشاوروا فى ما بينهم وقال بعضهم لنكثر من الهدايا والعطايا إليه عسى أن يميل معنا وقال أخرون بل زوجته أحق بالعطيا والهدايا فهى لا تشبع ابدأوتريد أن تصبح ثريا بتملك الذهب والفضه والمال وأن تصبح سيدة قومها فعليكم بها فسوف تفعل ما نريد وستظل تطارد زوجها ليل نهار وحتى فى مخدعه إلى أن يلين ويستجيب إلى ما نريد .
ووافقا الكل على هذا الرأى ..
وحمل عشرة منهم صفائح الذهب إلى امرأة بلعام ابن باعوراء ابن باعر من نسل لوط عليه السلام وفرحت بما رأت حتى كادت تسقط طربا على الأرض ومالت على زوجها تحثه أن يلبى رغبة القوم .. وأن يدعو على موسى وقومه .. وأنه بدعائه هذا سوف ينجى أهله ويكفيهم شر المحن والموت والذل والأسر ..
لكن بلعام رفض وتمسك برأيه فى ضرورة أن يأتيه أمر من ربه بالدعاء .
فقالت له :
إسأل ربك مرة ثالثة .. فلعلا هناك جديد وربما يوافقك على ذلك .. فتستريح وتريح قومك .. ونكسب كل صفائح الذهب والفضة هذه ونصبح من كبار الوجهاء فى المدينة ..
نظر بلعام إلى صفائح الذهب المتراصة فى وسط الدار وأخذته حيرة فى أمره واستجاب إلى زوجته فى الرجوع إلى ربه .. فلم يجب إليه بشئ .
فقالت له قاطعة كل خيط فى تردده .

أنه قد خيرك فى الدعاء عليهم . فلو لم يأذن لك لنهاك عن فعل ذلك وتمكن الشيطان منه وقادة إلى فعل ما يريد ..

وركب بلعام حماره متوجها إلى جبل يطل من فوقه على جيش موسى والمؤمنين معه . .

ولكن الحمار توقف عن السير فأنهال عليه بلعام ضربا .. ثم ركبه من جديد وسار الحمار بضع خطوات ثم توقف عن السير نهائيا فأعاد ضربه من جديد فألقي به على الأرض .. فعاد وركبة ..

وتكررت المحاولة أكثر من مرة .. والحمار يرفض السير .

وبلعام مصر على حثة على التقدم إلى قمة الجبل لكى يرى موسى وجيشة ويدعو عليهم .

وأنطق الله الحمار ..

قال له :

ويحك يا بلعام أين تذهب .. ؟ .. ألا ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهي هذا .. أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم .

فخر بلعام ساجدا لله نادما على فعلته .. وأخذ يبكى متضرعا إلى الله . لكن الملائكة كانت قد انصرفت عنه ..

وجاءه الشيطان بعد أن رفع وجهه وقال له :

أمضى لوجهك فأن ربك يستجيب لك ولو لم يرى ذلك لما برحت عنك الملائكة ولما خلوا سبيلك .

فركب حماره مصدقا لكلمات الشيطان ووسوسته وقد امتلاء قلبه وعقله بصورة صفائح الذهب والفضه والمال وصوت زوجته تحثه وتشجعه على مواصلة السير وبلوغ قمة الجبل والدعاء على موسى ومن معه حتى يفوزوا بالذهب والمال وتتجمع لهما الدنيا بمالها والآخرة بنعيمها ..

فهو نبى الله لبنى إسرائيل .

ووصل إلى أعلى قمة فى جبل " حسان " وأطل منها على موسى وجنده .. ورأى الأستعدادات الكبيرة والقوة الهائلة والأعداد الغفيرة التى تجمعت من حول موسى تأيدة وتنصرة .. وطاقت فى ذاكراته ما سمعه

من تأييد الله لموسى وقومه ووقوفه إلى جانبهم رغم ما فعلوا فى سيناء من عباده للعجل وأرتداء بعضعم عن دين الله .. لكن الله كـان دائما معهم يرشدهم إلى الصواب وإلى الحق ..

وشعر بأنهم قوة رهيبة سوف تستذل أهله وبلده ووسوس له الشيطان أن الفرصة أمامه للتخلص منهم ..

وعليه فقط أن يدعوا عليهم وسوف يستجيب الله لدعائه .. وأخذ يدعوا على موسى ومن معه .

ولكن الله كان غالبا على أمره . فكان لا يدعوا بشئ من الشر علـى موسى والمؤمنين معه إلا صرفه الله إلى قوم بلعام ولا يدعـوا لقومه بخير إلا صرفه الله إلى بنى اسرائيل ..

فثار قومه على ثورة عارمة وهم يتعجبون من أمره وقالوا له .

أنك تدعو لهم وتدعو علينا ماذا دهاك يا بلعام ..

هل أردت بنا الشر وأردت لهم الخير .. ؟ ..

وأدرك بلعام أن الشيطان قد استذله واستعبده .

فقال لهم :

هذا أمر لم أعد أملك منه شيئا . قد غلنى الله عليه .

وأندلع لسانه من فمه .

فسقط على صدره . فعلم ما حل به فأخبر قومه أن الدنيا قد ذهبـت منه والآخرة أيضا . ولم يعد أمامه سوى المكر والحيلة . وأنه سـوف يحتال لهم ويمكر من أجلهم حتى يتحقق ما يريدون .

وطلب بلعام من نسائهم أن يتجملن ويضعن أطيب العطور ويكشـفن عن أجسامهن وصدورهن ويظهرن ما خفى منها وما يشعل الرغبة فـى الصدور ويذهبن إلى معسكر موسى . وامر كل امرأة ألا تمنع نفسـها ممن يريدها من قوم موسى وجيشه ..

وبعث بهن إليهم .

ومشت النساء بين صفوف جيش موسى والمؤمنيـن معـه يدعـون الرجال إلى ممارسة البغاء معهن . فقد كان يعلم بلعام أنه لو زنا رجـل منهم مع نسائهم لتفشى مرض الطاعون فى جيش موسى ومن معه .

وكانت النساء تحمل ألونا من البضاعة التى تجذب الرجال إليها فسرنا بها وسط المعسكر وكانت بينهن امرأة ذات حسن وجمـــال .. طويلــه بيضاء سوداء الشعر جميلة الوجه دقيقة القسمات أظهرت من جســدها اكثر مما أخفت . وكان أسمها كبشا بنت صوريا فوقعت عليـها عينـى أحد كبار بنى اسرائيل واسمه زمرى بن سلوم من سبط ســمعون ابــن يعقوب ابن اسحاق بن إبراهيم . فقام إليها مبهورا بجمالــها مستسلما لكلماتها وأشارتها التى تفضح عن رغبتها وتعلن عن دلالها وجمالها ..

وذهب بها إلى موسى عليه السلام وقال له :

أظن أنك ستقول أن هذا حرام عليك .

قال له موسى عليه السلام :

أجل هى حرام عليك فلا تقربها .

قال له الرجل :

والله لا أطيعك فى هذا ابدا .

ثم أخذها ودخل بها خيمته وواقعها . فأرسل الله عز وجل الطـاعون على بنى اسرائيل حتى أهلك منهم سبعين ألفا .

وكان فنحاص بن عيزان صاحب موسى رجلا أعطاه الله بسطة فـى الجسم والخلق وقوى فى البطش بأعداء الله وكان غائبا عـن معسكر موسى عند هبوط النساء اليه تنشر الفتنه والبغاء وما حرم الله .

وعندما عاد إليه وعلم بالخبر والقصة مـن موسـى عليـه السـلام والمؤمنين معه دخل إلى خيمة زمرى والمرأة معه وكان فـى وضـع الجماع فغرز حربته فيهما وحملهما بذراعه وقد رفعهما إلـى السـماء واعتمد بمرفقة على خاصرته لاىوأسند الحربة على لحيته وأخذ يصيح.

هكذا نفعل بمن يعصى الله ورسوله .

ورفع الله الطاعون عن موسى والمؤمنين معه .ومازالت فعلة فنحاص سائرة بين المتشددين من اليهود . إذ يعطى لبنيه من كل ذبيحة ذبحوهـا الخاصر والذراع واللحى . لاعتماد فنحاص بالحربة علـى خاصرتـه وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته . كما يعطون بكر أولادهـم كل شئ لانه كان بكر أبيه .

وفى بلعام نزل قول الله عز وجل " وأتل عليهم نبـــاء الـــذى أتينـــاه آياتنا . "

وخسر بلعام دينه وآخرته بعد أن رفع الله سبحانه وتعالى عنه النبوة . وأنهزم قومه أمام جيش موسى عليه السلام . وضاع منه ومن زوجتـــه كل شئ .

وجاء كل ذلك نتيجة طمع امرأته وحبها لكنز الذهب والفضه فكان أن خسرت كل شئ وجعلت زوجها يخسر ربه ودينه ودنياه .

دليلة .. امرأة شمشون

ارتفعت الاكف بالدعاء إلى الله .. واخترقت الأبصار والعيون حجب الليل إلى عنان السماء فى ايمان عميق تدعو الله أن يمنحهما الابن .. وأن يمن عليهما بالخلف الصالح بعد أن طال بهما الشوق إليه . ومضت سنوات العمر دون أن يظهر مجرد بصيص من امل يحيي النفوس الجرداء والأرض الميته بعد أن أخذتها السنون وأصبحت عجوز عقيم .

قالت الزوجة فى حزن وأسى إلى زوجها :

هل يحدث هذا .. أن يمنحنا الله الولد الصالح ويحيى الأرض التى ماتت كما أحيا أرض سارة لابراهيم ومنحته الولد ..

قال الرجل فى ايمان عميق :

الله قادر على كل شئ .. أن يمنحنا الولد كما منح سارة العجوز العقيم .. فلا تيأسى من رحمة الله فإنه لا ييأس من رحمته إلا القوم الكافرين .

وصمت قليلا بعد أن جاهد فى منع نفسه من البكاء حتى لا يظهر ضعفه أمام زوجته وقال :

كم تمنيت الولد .. حتى يكون لى عزوة وقوة .. وأن أرى فروعى وجذورى تمتد فى أرض الله الواسعة .. وأن ينادينى الناس بأبو فلان .. أى فلان .. فسوف يكون أجمل ولد فى الدنيا كلها .. لانه ابنى ومن صلبى ودمى .. وسوف أعلمه أن يحافظ على قومى وأن يكون سندا لهم لا عليهم ..

قالت المرأة حزينة :

وأين هم بنو اسرائيل الآن .. لقد أصبحوا تحت إمرة الفلسطنين وسطوتهم .. ضاع بنو اسرائيل وضعفوا ولم تعد لهم كلمة .. وأصبح الفلسطينيون هم السادة ..

نعم .. لكن الأمور تتغير .. والحروب تجعل الناس يوما فوق . ويوما تحت .. فالقوة هى التى تغير مجرى الحياة .. إما لصالحك وإما لغيرك .. هكذا قانون الحياة منذ هبوط آدم وحواء إلى الأرض حتى يومنا هذا

ثم فى هدوء نفسى :

وهذه الأرض يوما لنا ويوم علينا .. نحن نعيش الآن فى الأيام التـــى علينا .. فنحن ضعاف متفرقون .. والفلسطينيون متحدون أقوياء ومن ثم كانت لهم الغلبة علينا .. لكن شيئا لايدوم .. الدوام لله الواحد القهار.

وسكت الرجال .. وران صمت حزين .. وتطلعت المرأة إلى السماء كانت صافيه مرصعة بالنجوم .. والقمر الوليد كأنه ينظر إليها ويبثـها الأمل ..

نظرت إليه في دهشة .. وعاودت النظر مرارا .. فالقمر يبتسم لها .. يبثها سره .. يحدثها بأن لا تفقد الأمل وأن الله قادر على كل شئ .

سألت نفسها .. هل هو يحاول أن يوصل إليها رسالة ســماوية بــأن الولد فى الطريق .. وأن العجوز العقيم ستلد .. وأن الأرض الجـــرداء سوف تنبت فيها الخضرة وأشجار الكروم كما هى نابته فى كل الأرض المحيطة بها .. وفى نساء قرية (صرعة) واللاتى كثيرا ما ترى على وجوههن علامات الحسرة والشماتة بها وبعقمها رغم أنـــهن يحــاولن إخفاءها أحيانا .. لكنها كانت تشعر بها وبما يقولونه من وراء ظــهرها .. لكنها لم تكن تملك من الأمر شيئا حتى زوجها (منوح) لم يكن هــو الآخر يملك شيئا . فهو رجل فحل قوى البنيان . طويــل . عريــض . جميل . شعره كث ووجهه جميل فيه رجولة وفتوة وقوة دفعت كثيرا من النساء إلى التقرب إليه والتودد منه عسى أن يميل إليهن ميــل الــهوى ويسرقنه منها .. فكثيرا ما سمعت بأذنها نساء قريتها (صرعة) وقــد أبدين دون خجل إعجابهن به وتمنين لحظة قرب أو وصال أو عنـاق .. فنساء بنى اسرائيل مشهورات بالغزل وصناعة الحب ويجدن حرفتــه و لا يحول أبدا شئ بين ما يتمنينه .. فلا بد من تحقيقه والوصول إليه بأى ثمن .. مهما كان هذا الثمن وأشجار الكرم المنتشرة على طـول الأرض وقمم الجبال تشهد بجلسات الغرام والهيام بيـــن النســاء والرجــال .. فروعها الخضراء وعناقيد عنبها المتدلى منها فى دقة حجمها وتناســق منظرها وتفرد جمالها وإحمرار ألوانها وكأنه خجل العذارى .. تــروى الكثير .. وتخبئ الحكايات الطويلة .. بعضها عذرى وأكثرها غير ذلـك .. الحب العذرى للفلسطنيات فهن يهمن شوقا إلـــى الكلمــات الحلـوة

والأغانى الجميلة ويحلمن بيوم الزفاف والزواج والعريس المرتقب لكن الاسرائليات لا يرضين بالأحلام ويبحثن عن الواقع .. حرفة الحب وصناعته وملامسة الأجساد وصوت التنهدات .. الحب عندهن امتزاج أجساد وعناق وشهوة تعصر القلوب وتذيب الأفئدة وتغيب العقول في الواقع المعسول ..

كل الكرمات في الأودية والسهول والجبال تنطق بهذا .. والرجال يعرفون .. والنساء يعرفن .. لكن لا أحد يتكلم أو يتحدث أو حتى يجوأ أن يعلنه .. وكأنه شئ طبيعي موروث من آلاف السنين وأصبح جزاء من تراث بني إسرائيل ..

إجترت المرأة صمتها وحزنها .. وتمنت لو أن الله أعطاها الولد كما أسر إليها القمر هذه الليلة .. فسوف تجعله يتزوج من فتاة فلسطينية .. حتى تحافظ عليه وعلى شرفه وكرامته .. وأن يجدها إذا بحث عنها عند قدميه وليس تحت أشجار العنب في الجبال ..

وألقت بنظرة إلى زوجها النائم بجوارها تتفحصة وكأنها تراه لأول مرة في حياتها .. كم هو جميل .. قوى .. مفتول العضلات فيه رجولة مثيرة للشهوة عند النساء .

واشتهته .. فأيقظته حتى قضى منها وترا فنامت قريرة العين مطمئنة الفؤاد .. وهمسات القمر إليها ووشوشاته يبثان في نفسها السعادة ويزرعان في أعماقها الأمل والولد .

وفى منامها رأت ملاكا يبشرها بمولود جميل .. وأن الأرض الجرداء ستصبح خضراء .. تنبت الولد الذى سيكون له شأن عظيم .. سيكون أحد أنبياء بنى اسرائيل ويقدم لهم المعجزة الالهية ..

وأوصاها الملاك بأن ترعاه جيدا وألا تحلق له شعرا وألا تأكل من بعد اليوم شيئا حراما أو نجسا ولا تشرب هى وزوجها خمرا ولا مسكرا

وقامت من نومها سعيدة منتشية وكأنها ملكت الدنيا بما فيها .. لم تشعر بالسعادة هذه من سنوات طويلة .. وأيقنت أن ما رأته فى منامها ليس سوى حقيقة مؤكدة ..

أيقظت زوجها وأخبرته بما رأت وقصت عليه ما دار بينها وبين ملاك الرب .. لكن الرجل لم يصدق الأمر .. وقال إن هي إلا أضغاث أحلام .. لكنه بينه وبين نفسه كان يتمنى أن يكون الحلم حقيقة .. وان يرزق الولد الصالح .. لكنه خاف أن تتعلق زوجته بهذا الأمر .. أو هذا الوهم . فتصاب بالأمراض ويأخذها الهزال وتقتلها الأحلام الكاذبة .

فقال لها يهون عليها الأمر :

إدعو الله أن يكون ماحدث حقيقة .. فالسيدة سارة أنجبت بعد أن حكت وجهها وقالت : عجوز عقيم كيف لها أن تلد .. فقال لها الملاك : هذه إرادة الله .. إذا أراد الله شيئا يقل له كن فيكون ..

ثم في ضعف شديد وتقرب إلى الله وقد إحتواه الأمل في أن يكون ما رأته امرأته حقيقة لا خيال .. قال :

إسجدى إلى الله .. وإدعى بأن يكون الأمر حقيقة أو أن يبث في نفسينا الإيمان والصبر بقضائه وقدره .

ونسى (منوح) الأمر أو تناسى عامدا حتى لا يثير الأمل الكاذب في زوجته .. لكنه أبدا لم ينس ذلك ودعا الله صباح مساء أن يكون الأمر حقيقة .. وأن يهبه الابن الصالح ليكون قرة عين له ولزوجته وأهله .. حتى جاءته ذات صباح مهرولة إليه وقد حملت الخبر السعيد ..

نادت عليه قبل أن تقترب منه لتعلنه بالنبأ العظيم ..

يا منوح .. الملاك الذى أرسله الله إليّ ظهر لى في الحقل يطمئنني ويبشرني بغلام جميل ..

ثم سألته أن يتبعها إلى الحقل حتى يستمع إلى كلامه ويتأكد من صدق روايتها .

سار منوح خلف امرأته مسرعا .. فقد كانت أسبق منه في السير .. ولم يرها من قبل تفعل ذلك .. وسأل نفسه من أين لها هذه القوة العجيبة .. إنها عجوز قد وهن العظم منها واشتعل الرأس شيبا .. يا سبحان الله لابد وأن الأمر حقيقي .. فهذه إحدى علاماته ..

راى منوح رجلا فى الحقل .. فخاف وتملكه هاجس غريب وأخذ يسال نفسه .. من يكون هذا الرجل .. من اين أتت به زوجته .. وهل فى الأمر شئ ..

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم .. فما عهد فى امرأته من قبل شيئا .. فهى نظيفة اليد واللسان والأخلاق .. مطيعة له لا تعصى له أمرا .. تحت قدميه فى أى وقت يشاء .. لكنها جميلة رائعة الحسن مكتملة الأنوثة .. وكثيرا ما شاهد رجال كثيرون أكثر منه ثروة وقوة وأرفع مكانة حاموا حولها وحاولوا اقتحام حصنها المنيع .. ولكن دون فائدة فقد كانت دائما تملك من القوة النفسية والجسدية والأخلاقية ما تحول بينها وبين السقوط فى الذلل مثل معظم نساء بنى إسرائيل ..

حمد الله على زوجته .. وأسرع إلى الرجل يتبين الأمر..

سأله :

من أنت ..

قال :

أنا رسول ربك لأهب لك غلاما ذكيا قويا ..

وماذا تريد .. وكيف نعامل الغلام إذا رزقنا الله به .

قال الرجل :

ماقلته لزوجتك من قبل .. ألا تشرب أو تسكر أو تأكل من حرام ..ولا تقرب أى شئ نجس .

نظر إليه منوح غير مصدق لما يسمع .. فالرجل يقول كلمات ويلقى بها إليه وكأنها أوامر لا بد من إطاعتها .. وداخله الشك فى أمره .. فقد يكون نصابا أو محترف سرقة أو دجالا ممن يظهرون فى بنى إسرائيل هذه الأيام ويدعون النبوة ومعرفة الغيب والأطلاع على أسرار المستقبل.

وسأل الرجل :

ما اسمك .. حتى إذا رزقنا الله بولد تذكرناك وأسميناه بإسمك تيمنا بك .

ومالك بإسمى .. ما أقوله لك عليك أن تنفذه ..

قال منوح :
إذا كنت حقا رسول من عند الله .. فسوف أقدم لله قربانا وأذبح جدى ماعز تقربا إليه وشكرا على نعمائه ..وسوف أرى ما ستفعله ..
ذبح منوح جدى ماعز وأحرقه على المذبح تقربا إلى الله ..
واختفى الملاك من أمامه .. وبحث عنه فلم يجده .. وايقن أن الله أكرمه بذرية صالحة وولد يشد أزره ويكون له قوة وسندا وعونا على الحياة ..
وبعد شهور رزقة الله بصبى جميل .. أسماه شمشون .

شب شمشون فى حب والديه له .. وكلما مرت الأيام والسنوات إزداد طولا وعرضا وقوة وفتوة ورجولة أصبحت حديث بنات وشباب بنى اسرائيل .. حتى غاروا منه وخافوا أن يهددهم فى فتياتهم أو أرزاقهم .. لكنه لم يفعل .. ولم ينظر إلى فتاه منهم رغم محاولات كثيرة لاجتذابه من قبل الفتيات .. لكن إحداهن لم تفلح أبدا فى التقرب إليه ..

كان عازفا عنهن حتى أقلق الأمر والديه .. وحدثاه فى الأمر وكيف أنه لا يفعل مثل باقى الشباب وينال حظه من الدنيا ومن متعة النساء ومن فن فتيات إسرائيل فى ممارسة الجنس وصناعته .. لكنه لم يكن يستمع إليهما وطمأنهما أنه بخير .. لكنه لا يحب أداء هذه الأفعال ..

لكن أمه لم يهدأ لها بال أو يستقر لها أمر .. فقد كانت قلقة عليه وعن عزوفة عن الفتيات وممارسته الحب معهن كغيره من شباب اسرائيل او الفلسطنين .. لم تلحظ يوما أنه ذهب مع إحداهن واختفى تحت أشجار العنب لتبادل المتعة أو حتى الحب العذرى ..

كان قلبه معلق بالسماء .. وكأن عليه دور لابد وأن يؤديه فى الحياة وفى بنى اسرائيل ..

وكانت هى تعرف ذلك منذ أن ظهر لها الملاك يبشرها بالغلام

لكنه قلب الأم دائما .. فهى تريد لولدها حياة مستقرة سعيدة هادئة مع مجموعة من البنات والصبيان زينة الحياة الدنيا .. كثيرا ما تمنت ذلك فى قرارة نفسها .. ودعت الله أناء الليل وأطراف النهار أن يرزقة بعروس جميله وأولاد وحفدة وان يرزقة من كل الثمرات وبالصحة والعافية ..

وقد رات بعينها الصحة والقوة والعافية التى منحها الله إليه .. فهو يخلع الشجرة من جذورها وكانه يلعب أو يلهو ودون أى جهد أو تعب .. وهو يصارع الثيران والحيوانات ويناطح الذئب ويجرى وراء الأسد دون خوف أو حذر ..

والأمر الغريب أن الحيوانات كانت هى التى تفر من أمامه هاربه منه إلى النجاة بنفسها ..

أيقنت أن الله خلقه وقدره لأمر ما .. فإستسلمت له ..

ذات صباح هبط شمشون إلى قرية (تمنه) ولم يكن تعبا وإنما أراد أن يأخذ قسطا من الراحة عند الغدير وتحت ظلال أشجار الكرم .. أرسل نظرة بعيدا بين الشجار الخضراء وعناقيد العنب تتدلى منها كحبات اللؤلؤ .. ورائحة الأوراق الخضراء وبعض الزهور البرية تبعث فى المكان السكينة والهدوء وتضفى عليه المزيد من الجمال والجلال .. فسبح الله على نعمته .. وحمده على ما منحه من قوة وصحة جعلته حديث كل الناس وحلم كل الفتيات .. وجعلته يسير آمنا وينام مطمئنا .. فما من أسد أو حيوان أو طير أو زواحف تستطيع أن تقترب منه وإلا قتلها فورا ودون أدنى جهد يذكر..

أرخى عينيه .. وكأنه يجمع فيهما كل هذه النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان وعلى هذه المنطقة فأراد أن تستقر الصورة فى الأعماق إلى الأبد ..

سمع صوتا ناعما على بعد .. واستشعر شيئا مبهما يحدث هناك .. فتح عينيه .. ونظر .. وأطال النظر فيما شاهد واستقرت عليه عينيه .. كانت فتاه رائعة الجمال .. طويلة فى تناسق بديع وكأنها إحدى النخيل المنتشرة من حوله داخل المزارع .. بيضاء .. صافية البياض وكأنها زهرة الفل وقد أنسكب شعرها الأسود فوق وجهها هائما فاعتقلته وأعادته إلى الخلف فظهر وجهها الجميل وكأنها القمر ليلة إكتماله ..

لأول مرة فى حياته شعر بشئ ما يهز كيانه ويسرى لذيذا فى أعماقه .. وتحركت داخله أشياء غريبة عليه لم يكن يعرفها من قبل حتى عندما كان يشاهد أجمل بنات قريته ..

تخلص من ربقة الدهشة التى اصابته لحظة رؤية الفتاة وشلت حركته وتفكيره .. وتقدم إليها فى هدوء وثقة ..

رأته الفتاة .. فأسرعت تخفى بعض ما ظهر منها من فتنة فقد أرادت ان تختفى عن أعين القوم فى هذه المنطقة حتى تستحم وتروى جسدها

الفائر المكتمل أنوثة من مياه هذا الغدير الموجود بين تكعيبات أشـــحار العنب ..

عرفته .. فقد كان مشهورا بين فتيات القرى .. وكل منـــهن تتمنـــى الوصال معه .. يتحدثن عن جماله ورجولته وقوته وفحولته ..

لكنه كان من أبناء اسرائيل .. وهى من بنات الفلسطينين لكن الأمر لم يكن يشغل بالها كثيرا .. فالعداء بين القريتين لم يكن ليحول دون حدوث شئ .. أى شئ ..

إقترب منها أكثر .. وألقى تحيه الصباح إليـــها .. واحتواهـــا بكـــل نظراته ..

فأطرقت براسها خجلا وهى تشـــعر بلـــهيب عينيـــه .. وبنظـــرات الإعجاب فيهما فسرها ذلك وعملت على تشجيعه واذكائه فى داخلـــه .. فأرسلت بسمة جميلة .. عبرت بها عن رضائها عليه .. وأوقعته فـــى هواها .. واحتوته .. فلم يعد فى كيانه جزء لم يظهر عليه الاعجاب بها والتقرب إليها والخضوع لأمرها .

عرفت أنها ملكته .. وأنه اصبح طوع أمرها .. تفعل به وفيه ما تشاء .. فهذا هو شمشون بنى اسرائيل ومبعث قوتهم وفخرهم يقف عـــاجزا أمامها تفعل به ما تريد .. وسوف يقول أهله فتاة فلسطينية أغوته وهوته فأصبح عبدا لها يلبىكل مطالبها ويسمع إلى أومرها .. فـــزادت مـــن جرعة الاعجاب به وإظهار المودة والحب إليه حتى أسلم لـــها القيـــادة والأمر والنهى ..

وشهدت أشجار الكرم حبه الأول .. أسرع إلى أهله يسألهم السماح له بالزواج من الفتاة الفلسطينية ..

عقصت أمه حاجبيها .. وحكت وجهها وهى تتســـاءل فـــى دهشـــة ممزوجة بالألم

فتاة فلسطينية .. هناك مئات الفتيات الإسرائيليات يتمنون القرب منـك .. لكنك ترفض .. وفى النهاية تعجب بفتاة فلسطينية وتتزوج منـــها .. هذه آخرتها ..

ثم نادت على زوجها تنبئه الخبر الحزين .. لكن الرجل لم يحزن فقد كان يعلم أن الله أعطاه إبنه لشئ مقدر .. وانه لا هو ولا إبنه يملكان من الأمر شيئا . فقد إختاره الله ليكون أحد انبياء بنى اسرائيل .ولكل نبى منهم معجزة .. ومعجزة ولده شمشون تكمن فى قوته الرهيبة .. وحياته ومماته شئ مقدر من عند الله .. الله وحده هو الذى يعلم بدايته ونهايته وما سوف تكون عليه حياته .. وكل شئ يحدث هو مقدر ومكتوب ولا هروب منه .. وقد أراد الله به مثلا فى الحياة الدنيا .. لكى يستفيد منه الناس من بعد ذلك وليؤكد عظمته وقدرته على الخلق والموت والحياة لمن يشاء .

استسلم الرجل مرغما لزواج إبنه شمشون من الفتاه الفلسطينيه .. لكنه فى أعماقه لم يكن مستريحا لذلك ..فالفلسطينيون يريدون الأنتقام من إبنه وسوف تكون هذه الفتاة خير وسيلة لهم لبلوغ مأربهم .. خاصة وأنه لاحظ أنها لا تميل إلى ابنه قدر ميله وحبه لها .. فهى تملك زمام أمرها وتسيطر على نفسها ومشاعرها .. أما هو فمندفع إليها إندفاعا يدعو إلى الدهشة والخوف من المجهول .. وليس أمامه من شئ سوى القبول بالأمر الواقع خاصة وأن السيطرة والغلبة الآن للفلسطينين .. فهم الذين يحكمون ويتحكمون فى بنى اسرائيل ولهم السطوة والمنعة والقوى والنفوذ .. واما الأسرائيليون فليس عليهم سوى القبول بالأمر الواقع وما قدر لهم من ضعف وهوان جعل الفلسطينيون ينتصرون عليهم ويتحكمون فيهم ويفعلون ما يريدون ..

الفلسطينيون اليوم هم السادة والحكام .. وهذه الفتاة التى يريد ابنه الزواج منها هى واحدة منهم .. والله وحدة يعلم مدى صدقها وحبها له .. أم أنها إنتهزت الفرصة لتوقع ببنى اسرائيل وتسخر منه وتهزأ من قوته أمام قومها .

دارت كل هذه الافكار فى رأس منوح وهو فى طريقة إلى بيت الفلسطينية لكى يخطبها لولده شمشون .. شعر بشئ من التعب والأجهاد فإستأذن ابنه وزوجته أن يستظلوا تحت شجرة كرم قبل أن يدخل إلى

بيت الفتاه حتى يستريحوا ويستجمعوا كلماتهم ويتفكروا جيدا فيما سوف يحدث ..

تركهما شمشون وتمشى قليلا بين أشجار الكرم يفكر فى أمر عروسه الفلسطينية .. وقد سحره جمالها وقوامها وضحكتها .. ولم يأخذه التفكير لحظة فيما إذا كانت هذه الفتاه صادقة فى حبها له .. أم أنها وجدتها فرصة فألقت بشباكها عليه عسى أن تصطاد أسد بنى اسرائيل وتوقعه فى حبها لتفعل به ما تريد ..

فقد هاجمه شبل أسد .. فامسك به وشقه نصفين من فمه .. وعاد إلى أبويه ولم يخبرهما بما حدث .. وانطلقوا جميعا صوب دار الفتاة الفلسطينية حيث تم الاتفاق على الزواج ..

وبعد أيام عاد لإصطحابها إلى بيته كعادتهم .. فمر على رمة شبل الأسد فإذا خليه من النحل قد سكنت تجاويف جيفته وأفرزت عسلا .. فأخذ منه وأكل وأخذ لوالدية أيضا .

وفى حفل الزفاف كانت هناك مجموعة من الشباب تتسابق إلى التعرف إليه وسر قوته الرهيبة ومعرفة مدى ذكائه .. ودارت بينهم أحجيات وفوازير بهدف بعث النشوة والسرور ..

وطرح عليهم شمشون أحجية وأخبرهم إن هم فكوا رموزها سيشترى ملابس جديدة لثلاثين منهم وإذا لم يستطيعوا اشتروا له نفس الكمية ..

قال لهم كما جاء فى الاصحاح الرابع عشر من العهد القديم (صفحة ٤٠٥) من الاكل خرج أكل ومن الجافى خرجت حلاوة وأعطاهم شمشون سبعة أيام لكى يستطيعوا حلها وإلا أوفوا بما إتفقوا عليه ..

ومضت ثلاث أيام ولم يتمكنوا من حلها .. فقصدوا زوجته وطلبوا منها معرفة مقصده حتى لا ينتصر عليهم ذلك الاسرائيلى وأثاروا فيها الحمية والواطنية لبنى جنسها فمالت إليهم عليه .. وكادت له وحاكت الخطط لكى تقتنص منه حل الأحجية حتى تبلغة لأهلها ..

بكت وتوسلت إليه وإمتنعت عليه فى الفراش وأغرته بإبتسامتها .. فمال إليها عن ضعف واخبرها بالحل فأبلغت به شباب بلدتها فأخبروه بالحل الصحيح فشك شمشون فى الأمر وقال لهم :

لقد حرثتم فى أرضى .. وعرفتم زوجتى حتى إستطعتم غوايتها ومعرفة سرى منها ..

وإستشاط غضبا وهجم عليهم وأمسك بهم وقتل منهم ثلاثين رجلا .. وترك زوجته وعاد إلى بيت أبيه .

وتزوجت زوجته من صديقة دون علمه .

وعندما تملكه الشوق إليها ذهب إلى بيتها لكى يستردها .. فأكتشف زواجها من صديقة وأنه كان لعبة فى يدها .. وعرض عليه والدها أن يزوجه من أختها الصغرى لكى يرضيه حتى لا يستخدم قوته فى إيذاء الفلسطينيين لكنه رفض وأنتقم منهم بوضع مشاعل نار فى ذيل مجموعة من الكلاب أطلقها داخل مزارع الفلسطينيين فأحترق الزرع عن أخره .

وأراد الفلسطينيون الانتقام من زوجة شمشون السابقة وصديقه الذى تزوجها لكنه رفض وهددهم إن هم فعلوا ذلك بها فسوف يقتل منهم الكثير .. فقد كان يحبها بشدة وقد استحوذت على كل تفكيره وحياته ولم يؤثر فى حبه لها ما فعلته به من مكائد وبزواجها من صديقة وتركها له .. وإظهاره أمام أهله بمظهر الإنسان الضعيف وخاف الإسرائيليون من تسلط الفلسطينيون عليهم .. فهم السادة والحكام والمنتصرون عليهم .. وما فعله شمشون بإحراق مزارعهم وحقولهم انتقاما من فعلة زوجته الفلسطينية سوف يدفع الفلسطينيين إلى الأنتقام من الأسرائليين وسألوه :

لماذا فعلت فعلتك هذه ؟

قال لهم :

كما فعلوا بى فعلت بهم .

قالوا له خوفا :

لا تغضب منا .. فسوف نوثقك ونسلمك لهم حتى ندرأ عنا انتقامهم منا ومن حرق مزراعنا وحقولنا .

قال لهم بعد أن رأى فزعهم وخوفهم من الفلسطينيين .

لا تقتلوني .. ولكن أوثقوا وثاقي فقط .. واتركوني لهم أو عليهم . .
فوافقوا على ذلك .. فالمهم أن يسلموه إلى الفلسطينيين حتى لا يتعرضوا لانتقامهم ..

وتمكن أمام الفلسطينيين من فك وثاقه .. ووجد لحى حمار ميت فأخذه وقتل به منهم ألفا أو يزيد .. وشعر بعطش شديد فدعا ربه أن يرزقه الماء .. فخرج من لحى الحمار ماء فشرب حتى ارتوى ورجعت له روحه وأطلق على هذا المكان (عين هقورى) التى فى لحى حتى اليوم

وأخذه حبه لزوجته وخيانتها له فاصابه من نفسه وأصبح هائما بين البيوت وكرمات العنب والأودية والجبال يبحث عن شئ يذيب به همومه التى تكلست على قلبه واوهنت جسده قلبه وصحته وعافيته .. فامضى ساعاته وأيامه هائما فى الطرقات والشوارع كما جاء فى كتاب العهد القديم فطمع به بعض الشباب وكمنوا له حتى يأخذوه على حين غرة فيصيبوه فى مقتل .. ونصبوا كمينهم ذات ليل دامس كان فيه شمشون قد أثقله الهم وجعله يترنخ فطمع فيه الشباب وكمنوا له حتى يأخذوه على حين غرة .. وعند باب المدينة نصبوا الفخ له .. لكنه شعر بهم فاسرع إلى باب المدينة ينتزعه انتزاعا من مثبته وضرب به الشباب حتى قضى عليهم جميعا وهرب الباقي منهم إلى شعاب الجبال نجاة بحياته وفرارا بنفسه من قوة شمشون وضرباته .

واستمر الحال أيام وشهورا حتى هدأ الجرح .. واستعاد شمشون سيطرته على نفسه . وبدأ الفلسطينيون يخشونه من جديد .. وبحثوا له عن حل يرحمهم منه ومن سطوته ونفوذه وقوته الخارقة والتي لا تقهر وتضعهم دائما تحت رقابته وأمره .

بحث الفلسطينيون عن فتاة جميلة تستطيع السيطرة عليه من جديد وان تعرف سر قوته ومكمنها حتى يقضوا عليها أو يزيلوها منه ليعود إليهم الأمن والاستقرار والغلبة والسيادة على الإسرائيليين .. وكانت هناك فتاة رائعة الجمال (اسمها دليلة) تعيش فى (وادى سورق) .. طويله .. صافية البياض .. ذهبية الشعر . تتركه منسدلا على كتفيها فيطير هنا وهناك ويسحر عقول الرجال والشباب ويهيمون معه أينما طار أو شرد .. وكانت إلى جانب جمالها تجيد الحيلة شديدة الذكاء سريعة حسن التصرف .. فإتفقوا معها على الإيقاع بشمشون ونصب شباك الحيلة له .. واخبروها بالأماكن التى يتردد عليها .. والأماكن التى يجلس فيها بحثا عن الهدوء والاستقرار .. ووعدوها بأموال طائلة إن هى عرفت سر قوته وعملت على إزالتها أو ساعدتهم فى القضاء عليها .

وكمنت له . كأنها القضاء والقدر . وكانه مكتوب عليه أن يقضى عليه بيد امرأة .. فإندفاع إليها بشدة .. وغرق فى بحر هواها وقيدته بجدائل شعرها الذهبى .. فإشتعلت فى أعماقه الرغبة وسيطرت عليه النزوة .. فعرفت انه أصبح طوع يديها .. لكنها كامرأة مدربة أرادت ألا تتركه حتى يسقط على صدرها وتنهار آخر قلاعه من القوة والفتوة والرجولة ..

أرادت أن يكون به شئ من القوة والعقل حتى يحسن التدبير وطلبت منه أن يعود إليها من أجل مزيد من اللهو " فعاد " لكنها كانت قد غادرت البيت متعمدة حتى تشعل فى نفسه الرغبة إليها .. وتخفت فى مكان قصى ترقبه .. كان كالقط يحوم حول بيت صاحبه حتى إذا أخذه التعب فرط رجليه وتمدد ونام على عتبة البيت حتى يأتى من يوقظه ..

وكانت هى التى أيقظته وأصطحبته معها إلى الداخل .. وراودته عن نفسها .. هى مقابل معرفة سر قوته .. وكيف يمكن التحكم فيها .. أصرت هى وأصر هو على الرفض ثم بدأ يميل شيئا فشيئا إليها .. ويراود نفسه على اخبارها بأمره .. ثم إتخذ قرارا سريا بألا يخبرها

بالحقيقة .. وإدعى لها أنه إذا تم وثاقة بسبعة أوتار طرية فإن قوته سوف تذهب ولن يستطيع التخلص منها وداعبته ولا عبته حتى نام بين يديها .. ونادت على الفلسطينيين من مكمنهم فأوثقوه بسبعة أوتار طريه لم تجف .. وانتظروا يرقبون الموقف .. ماذا سيفعل شمشون .. وكان قد أفاق من نومه فالقى بالأوتار السبعة على الأرض وتخلص منها في سهولة .

وعرفت دليله أن شمشون خدعها .. وان مكيدتها له لم تؤت ثمارها .. فقررت أن تزيد من جرعة الحب بعد أن تصيبه بالحرمان منها أيام .

ثم عاودت سؤاله من جديد .. فقال لها إن تم وثاقة بحبال جديدة يضعف وتضيع منه قوته ويصبح أقل من الإنسان العادى .. فنادت على شباب الفلسطينيين لكى يوثقوه بالحبال .. وكمنوا له حتى يروا ماذا سيفعل .. لكنه قام من نومه وألقى الحبال بعيدا وكأن شيئا لم يكن ..

شعرت دليله بالمهانه .. فما صعب عليها أمر من قبل ولاخابت مكائدها وحيلها فى إصطياد الرجال .. ازدادت شهوتها إلى الانتقام منه لأنه ضحك عليها مع زيادة حجم الجائزة المالية التى وعدها بها الفلسطينيين إن هى عرفت مكمن قوته .

وقررت أن تستخدم سلاح المرأة الذى لا يخيب ابدا .. كان موعده الليلة معها .. فتزينت وتعطرت وألقت بشعرها الذهبى خلف ظهرها وتركت بعضا منه هائما حول كتفيها حائرا يبحث عن مستقر ..

واقبل عليها شمشون وقد أخذه جمالها الرائع فسرى خدر لذيذ فى أعضائه واستسلم لها تفعل به ما تشاء .. فأعطته حتى رضى وشبع ثم أخذت رأسه إلى حجرها ولعبت بأصابعها المدربة داخل شعرة الغزير الطويل تهدهده حتى إستسلم لها ولأصابعها وأصبح كالمعلق بين السماء والأرض .. فاقد الوزن والحس والإدراك .. مطيع لكل ما تمليه عليه .

وعرفت انه الوقت المناسب لسؤاله ومعرفة سر قوته فأخبرها به .. وأن سر قوته فى شعره .. فهكذا أخبر الملاك أمه قبل ولادته وطلب منها ألا تحلق له شعره حتى الموت وإلا ضاعت قوته .. ومن مولده حتى هذه اللحظة لم يحلق شعر رأسه أبدا ..

" فأدركت أنه هذه المرة يقول الحق .. وأن حيلتها معه قد نجحت .. فأشارت إلى مجموعة الشباب المختبئ فى مكان خفى أن يظهر .. وقاموا بحلق شعر رأسه وجذه من جذوره فأفاق .. ولكن قوته كانت قد فارقته فألقوا عليه القبض واقتلعوا عينيه وذهبوا به إلى غزة حيث أوثقوه بسلاسل من نحاس وربطوه فى الطاحونة بدلا من الثور لكى يديرها فى طحن الغلال حتى يأتى موعد شنقه وموته ..

وأقاموا حفلا كبيرا ابتهاجا بقرب التخلص منه ونحروا الذبائح الكثيرة .. وطلب عليه القوم وسادتها من السجان أن يأتى بشمشون حتى يلعب أمامهم ويستعرض قوته ويكون مبعث ضحك وتسلية لهم ..

قدم شمشون مكبلا بالسلاسل والقيود فى قدميه ورجليه وحول وسطه وعنقه .. وطلبوا منه فى سخرية أن يقدم لهم بعض العروض الضاحكة .. وكان شعر رأسه قد بدأ ينبت ويكبر .

داخل السجن دون أن يفطن أحد إلى ذلك الأمر وأنه لو كبر وأصبح طويلا لعادت إلى شمشون قوته الرهيبة ..

إستمع إلى ضحكاتهم الساخرة .. وإلى أوامرهم إليه باللعب وتقديم الحركات البهلوانية الضاحكة .. وفارت الدماء فى عروقه .. وسأل أحد حراسة أن يستند إلى العمودين اللذين يحملان القصر .. فقد أصابه التعب والوهن وهو لم يعد يرى وفى حاجة إلى الراحة القليلة حتى يتمكن من تقديم عروض جيده تناسب كبار القوم وحكام المدينة وهذه الاحتفالات الرائعة .

صدق الحارس الأمر .. وأخذ يديه ساخرا منه لكى يضعهما على العمودين .. وأدرك شمشون أن الفرصة أصبحت بين يديه لكى ينتقم منهم على فعلتهم .. ونادى ربه أن يساعده فى الأنتقام .. وصاح صيحة كبيرة إهتزا لها القوم وساد بينهم الذعر .. وأطاح بالعمودين من مكانهما فسقط القصر على رؤس المحتفلين داخله .. ومات أكثر من أربعة آلاف رجل كانوا فى الحفل - كما جاء فى الأصحاح السادس عشر من العهد القديم - ومات شمشون أيضا وأخذه أهله ودفنوه بين صرعة وأشتأول فى قبر والده منوح .

وبقيت قصته تروى للأجيال وأصبحت حكايته عبرة لكل رجل يسلم مقود نفسه إلى امرأة جميلة ليس لها من الأخلاق شئ .. فسوف تخونه كما فعلت دليلة مع شمشون .. وكما قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : تنكح المرأة لثلاث لمالها وجمالها ودينها .. فاظفر بذات الدين تربت يداك .

فذات الدين تحفظ على الرجل شرفه وبيته وأولاده . وتنشئهم تنشئه صالحة .

إلياس .. وأم اليسع عليه السلام

ضاق نبى الله إلياس من قومه بعد أن كذبـــوه وعصـــوه ورفضـــوا تصديق دعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد .. فهرب من بطشهم وظلمهم إلى قمم الجبال حتى لا يقتلوه ...

وكان الله عز وجل قد بعثه إلى أهل بعلبك - فى لبنان الآن - يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام وعبادة الخالق البارئ المصور الرحمن الرحيـم .. وكانوا يعبدون صنما اسمه (بعل) ويقال إنها كانت امرأة إســمها (بعل) فقد اختلف الرواة فى ذلك .

وقال لهم كما جاء فى القرآن الكريم " ألا تتقـــون . أتدعـون بعـلا وتذورن أحسن الخالقين . الله ربكم ورب ءابائكم الأولين " .

فكذبوه وأنكروا عليه دعوته واتخذوه سخريا وقالوا إنه مـــدع دجـــال يريد أن يبعدنا عن آلهتنا وآلهة آبائنا وأجدادنا .. أو هو يســـعى إلـــى منصب أو مركز أو حظوة أو يصيب منا غنى و مالا ورزقا كبيرا ..

وهموا إليه يبغون قتله . فهرب إلى قمم الجبال .

يقول تعالى فى سورة الصافات : " وأن إلياس من المرسلين إذا قـــال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخـــالقين . الله ربكـم ورب ءابائكم الأولين . فكذبـــوه فإنـــهم لمحضـــرون . إلا عبـــاد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلم على آل ياسين . إنا كذلـك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين . " .

وقال علماء النسب هو إلياس النشبى . وقالوا بل هو ابن ياسين بـــن فنحاص بن العيزار بن هارون . وقالوا إنه إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران .

وقال ابن مسعود إن إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحـــاك بـــن مزاحم ، وحكاه قتاده ومحمد بن اسحاق ولكن الرأى الغالب أنـــه غـــير ذلك .

وظل الياس مختفيا داخل مغارات فى قمم الجبل الشاهقة خوفـــا مـــن مطارة أهل المدينة وملكها له ابتغاء قتله لسبه صنمهم (بعـــل) الـــذى يعبدون .

وقيل إنه مكث فوق الجبال هاربا سبع سنين وقيل عشرا وكان يـأوى إلى الشعاب والكهوف ويأكل من حشائش الأرض وثمار الأشجار ومما يجده من نباتات داخل فجوات الكهوف . أو نامية فوق قمم الجبال .

وقيل أن الله سبحانه وتعالى سخر له بعض الطير لكى تحضـر لـه الطعام فوق قمم الجبال وحفظه من الوحوش البرية المفترسة وأبعدها عنه .

وشعر بالضيق بعد طول غربة واغتراب عن الناس والأهـل فـوق الجبال فهبط إلى المدينة وآوته امرأة من بنى إسرائيل وأخفت أمره عـن أعين الناس .

وكان لها ولد مريض إسمه (اليسع بن أخطوب) فدعا لـه إليـاس بالشفاء والصحة والعافية . وكان مستجاب الدعوة فإستجاب الله لدعائـه وشفى اليسع من مرضه وفرحت أمه كثيرا وسرت بما فعله لها إليـاس .. فإبنها هو وحيدها الذى تترجاه من هذه الدنيا وأقسمت فى نفسـها أن تفعل كل ما فى وسعها من أجل حماية إلياس وتوفير الراحة والرعايـة اللازمة له وتضليل الناس من بنى إسرائيل عنه حتى لا يقتلوه بعـد أن حبس عنهم ماء الأمطار وتحولت مدينتهم إلى أرض جرداء لا حياة فيها ولا ماء وأوشك الناس على الموت جوعا وعطشا .

وكان إلياس قد أخذه الهم والحزن والأسى من قومه وكفرهم وعـدم تصديقهم لدعوته لعبادة الله الواحد الأحد فأوحى الله إليه سائلا إياه كما جاء فى كتب السلف الصالح :

ما هذا الحزن والجزع الذى أنت فيه . ألست أمينى على وحيي ؟

وحجتى فى أرضى ؟ وصفوتي من خلقى ؟ فإسألنى أعطك فـإنى ذوا الرحمة الواسعة والفضل العظيم .

وقال إلياس عليه السلام :

تميتني وتلحقنى بآبائى فإنى قد مللت بنى إسرائيل وملونى وأبغضتـهم فيك وأبغضونى .

فأوحى الله إليه :

يا الياس ما هذا اليوم الذى عرى منك الأرض وأهلها وانما قوامها وصلاحها بك وأشباهك . لكن سلنى أعطك .

قال إلياس :

فإن لم تمتني يا إلهى فأعطني ثأرى من بنى إسرائيل .

فأوحى الله تعالى إليه فأي شئ تريد أعطيك يا إلياس ؟

قال :

تمكننى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشئ عليهم سحاية إلا بدعوتى . ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتي . فإنهم لا يذلاهم إلا بذلك .

قال تعالى : يا إلياس . أنا أرحم بعبادى من ذلك . وأن كانوا ظالمين.

قال : فست سنين .

قال تعالى :

أنا أرحم بخلقى من ذلك وأن كانوا ظالمين ولكنى أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين . أجعل خزائن المطر بيدك . ولا أنشر عليهم سحابه إلا بدعوتك . ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك .

قال إلياس : فبأى شئ أعيش ؟

قال سبحانه وتعالى :

أسخر لك جيشا من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التى لم تقحط .

قال إلياس : قد رضيت .

فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين . حتى هلكت المواشى والدواب . والهوام والشجر . وجهد الناس جهادا شديدا . وإلياس على حاله . مختف من قومه فى مكان يساق إليه فيه الرزق . ويأتيه حيثما كان .

وقد عرفه بذلك قومه . فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز فى بيت قالوا : لقد دخل إلياس إلى هذا المكان فيطلبونه . ويلقى منهم أهل هذا المكان شرا .

يقول ابن عباس : أصاب بنى إسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات . فمر إلياس بعجوز فقال لها :

هل عندك طعام ؟
قالت : نعم شئ من دقيق وزيت قليل .
فجاءته بشئ من الدقيق والزيت . فدعا فيهما البركة ومسهما . فبارك الله في ذلك حتى ملأت جرابها دقيقا وملأت خوابيها زيتا .
فلما رأى بنوا إسرائيل ذلك عندها قالوا لها :
-من أين لك هذا ؟
قالت : مر بي رجل من حالة كذا وكذا . ووصفته بصفته .
فعرفوه وقالوا لها :
ذلك إلياس . ثم إنهم طلبوه فوجدوه . فهرب منهم إلى الجبال .
وعندما ضاق إلياس عليه السلام ذرعا بالمعيشة فوق قمم الجبال هبط إلى المدينة حيث خبأته أم اليسع بن أخطبوب عليه السلام . والذى دعا إلياس بالشفاء من مرضه فشفى وأصبح من أتباعه وأسلم لله على يديه ثم أعطاه الله الرساله والدعوة من بعد إلياس .
يقول تعالى فى سورة الأنعام : " واسماعيل واليسع ويونس ولوط وكلا فضلنا على العالمين " .
وقال تعالى فى سورة (ص) : " واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار " .
يقول ابن اسحاق : حدثنا بشر أبو حذيفة . أنبأنا سعيد عن قتاده عن الحسن أنه قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام . فمكث ما شاء الله أن يمكث . يدعوهم إلى الله متمسكا بمناهج إلياس وشريعته . حتى قبضه الله عز وجل إليه . ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء . وكان فيهم ملك عنيد طاغ .
ويقال إن الله أوحى إلى إلياس عليه السلام أنك أهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعصونى من البهائم والدواب . والهوام والشجر والنباتات بحبس المطر عن بنى إسرائيل .
فقال إلياس :
- يارب دعنى أكون الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك .

فجاء الياس إلى بنى إسرائيل وقال لهم :
ويلكم إنكم قد هلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم . وانكم على باطل وعزور فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التى تدعونها من دون الله لن تغنى عنكم شيئا فإخرجوا بأصنامكم هذه . فإن إستجابت لكم فذلك كما تقولون . وأن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل وعزور فنزرعتم عنها ودعوت الله تعالى أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء.
قالوا : أنصفت .
فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء .
فقالوا : يا إلياس . إنا هلكنا . فإدع الله لنا .
فدعا الله إلياس ومعه اليسع عليهما لسلام بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا . فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون إليها . فأقبلت نحوهم وطبقت عليهم الأفق . ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثهم وأحيت بلادهم.
قالوا فشكوا إلى إلياس هدم الجدران وعدم البذر وقالوا ليست لنا حبوب . فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بأن يبذورا الرمل . فأنبت الله لهم منه الدخن . فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالتهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه .
فلما رأى الياس ذلك دعا ربه أن يريحه منهم . فقيل له :
انتظر يوم كذا كذا فإخرج إلى موضع كذا وكذا فإذا حاءك شئ فباركه ولا تهبه .
فخرج الياس ومعه إليسع بن أخطوب عليهما السلام حتى إذا كانا بالموضع الذى أمرا بالخروج إليه . أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه فوثب عليه إلياس فإنطلق به الفرس . فناذاه إليسع :
يا إلياس ما تأمرنى به ؟

فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى . وكان ذلك آخر العهد به ولم يلتق به اليسع من بعد ذلك . ولم يره عند موته .

ونبأ الله سبحانه وتعالى بفضله اليسع عليه السلام وبعثه نبيا ورسولا إلى بنى إسرائيل . وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأية وأمره وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع .

وهكذا شاء الله سبحانه وتعالى أن تكيد أم اليسع على بنى إسرائيل وتخفى عنهم وجود إلياس عليه السلام عندها حتى لا يقتلوه فكان جزاء كيدها الحسن أن يشفى إبنها اليسع من مرضه ببركة من الله على يد نبيه إلياس ..

ثم اسلام إبنها اليسع وآمن بما يدعو إليه إلياس من عبادة الله الواحد القهار .. ثم إختاره الله من بعد إلياس نبيا ورسولا إلى بنى إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والقول بالمعروف والنهى عن المنكر حتى قبضه الله تعالى عليه .

سليمان .. وبلقيس .. وجراد

١- بلقيس ملكة سبأ

كانت بلقيس جميلة حلوة . طرية ندية .. يسحر جمالها الألباب ويأخذ بمجامع القلوب ويأسر الرجال والشباب فيندفعون إليها دفعا يطلبون رضاءها ويأملون فى كلمة أو بسمة أو نظرة ..

وكانت هى لا تبالى بهم .. متعالية عن رغبات الرجال فيها فما من أحد يجاوزها قدرا أو يدانيها حسبا ونسبا أو يماثلها ذكاء وقوة بصيره .. أو يستطيع أن يملأ عليها حياتها ويروض داخلها رغبات الأنثى وجموحها واندفاعها فتسلمه قيادتها ومقودها وترضى به فارسا يعرف طريقة ويعرف كيف يقودها إلى الطريق السليم .

فقد كانت - كما يقول الرواة - ابنة جنية رائعة الجمال اختارها أبوها البشرخ والملقب بالهذهاذ زوجة له وكان ملكا على اليمن (سبأ) يخافه الناس والملوك من قوته وهيبته وعظمته وكان يفرض سيطرته على اليمن كلها ولم تستطع أحد أن ينازعه الملك كما لم يستطيع امرأة من قومه وجيرانه أن تملك قلبه أو ترضى عقله ليتخذها زوجة له .. فاتخذ زوجة من نساء الجن .. وكانت الجن تظهر للإنس فى هذا الزمان ويعرف كل منهم الآخر ويتعايش معه وكان اسمها ريحانه بنت الشكر فولدت له (بلعمة) أو بلقيس كما عرف عنها من بعد ذلك واشتهرت به .. ولم تنجب له ولدا ليرث العرش.

يقول ابن ميمونه بإسناده عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كان أحد أبو بلقيس جنيا ..وقد روى ذلك ابن إسحاق الثعلبي فى كتابه المسمى بالعرائس .

وورثت بلقيس عرش أبيها وأصبحت ملكة على سبأ .. وطلبت من قومها أن يبايعوها ويساندوها فى الحكم لكن بعضهم رفض ذلك واختاروا رجلا من بينهم ليكون ملكا عليهم .

وانقسمت سبأ إلى دولتين ومملكتين إحداهما تملكها بلقيس بنت البشرخ بن الحرث بن صنعاء بن يشجب بن يعرب بن قحطان .. والملكة الأخرى يملكها من أختاره الناس ملكا عليهم .. لكنه سرعان ما ضل

وغوى وأتى الفاحشة والمنكر وجرى خلف حرائر النساء وسرق أموال الناس وبث الرعب والخوف فى المملكه .. فثار عليه الناس لكنهم لم يستطيعوا أن يقتلعوه من مكانه فقد كثر من حوله الأفاقين والدجالين وأصحاب المصالح والمستفيدين منه فدافعوا عنه دفاعا قويا .. وعاش الناس فى عذاب أليم لا يعرفون كيف يخرجون منه واستسلموا له حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

ولجأ فريق منهم إلى بلقيس لكى تخلصهم من هذا الظلم بعد أن شاهدوا مملكتها وقد أصبحت عامرة بكل خيرات الله والعدل والرحمة والمساواة ناشرة أجنحتها فى كل مكان .. والناس تعيش فى سعادة وراحة بال يحسدها عليها كل إنسان غريب ..

كانت مملكة بلقيس جنة من جنات الله على أرضة .. فيها المباني الشاهقة ذات التقسمات الهندسة الفريدة .. والحدائق الغناء المثمرة والشوارع والطرقات الواسعة والأشجار الباسقة والسدود الفريدة والتى أقيمت على الأنهار بطريقة عجيبة نادرة للتحكم فى توزيع المياه على المزارع والحداق والقرى والمدن .. وأقامت بلقيس لنفسها قصرا منيفا به قاعة عرش عظيمة لم يرى احد مثلها من قبل فى البلاد .

يقول سبحانه وتعالى فى سورة النمل " إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم " .

واظهرت بلقيس عدم رضاها بإنضمام المملكتين فى مملكة واحدة كما كان عليه الحال من قبل فى حياة أبيها .. فقد كانت مرارة التفرقة بين أجزاء المملكة مازالت مؤثرة فيها ومازال رفض هؤلاء الناس لها لتكون ملكة عليهم وتفضيلهم لتولى رجل بدلا منها ليكون ملكا عليهم مستقر فى أعماقها فقد رفضوها من قبل ملكة عليهم فكيف يسعون إليها اليوم لتصبح لهم وتخلصهم من ظلم وجبروت ملكهم .

كانت ذات ذكاء شديد تتعرف به على نفوس من حولها وايقنت أنها لو سارعت وأعلنت قبولها الأمر .. لتملك الناس شك كبير فيها وفى نواياها .. وأنها فرحة بعودة باقى مملكة أبيها إليها فكان عليها أن تتمنع وأن تتظاهر بالرفض حتى يسعوا إليها سعيا ويعلنوا ندمهم على ما فات

وعدم إختيارهم لها ملكة عليهم .. ثم ليعلنوا أيضا توبتهم وأستسلامهم لها ولكل ما سوف تفعله بهم ولهم مستقبلا .

وفى تمنعها وعدم قبولها الملك عليهم سريعا إرضاء لشعبها وناساها الذين لم يترددوا لحظة فى اختيارها ملكة عليهم .. فكأنها بذلك تزيد من عزتهم وقوتهم وتعلى من كرامتهم ويشعرون معها شعور الرضاء والفخر على حسن اختيارهم لها .

كانت بذكائها وحسن تصرفها هذا كالصياد الماهر الذى يضرب عصورين بحجر واحد ..

ونجحت خطتها بعد أن أسرع الناس فى المملكة الأخرى يعلنون ندمهم وتوبتهم ويطلبون رضائها ورضاء شعبها على إعادة توحيد المملكة .

وبدأت بلقيس فى وضع مكيدة تستطيع بها أن تقتلع جذور هنا الملك المستبد والذى أتخذ من أعوانه وجنوده المستفيدين منهم سندا وعونا له لتدعيم ملكه .

واهتدت إلى حيله ..

بعثت إليه تعرض نفسها زوجه له وأن تتوحد سبأ تحت ملكه وطلبت منه أن يجمع رجال قومها وأن يخطبها منهم .. فجمعهم وخطبها منهم .. فلم يصدقوا الأمر .. فقد رفضت كثيرا من الرجال من ذوى المناصب و الغنى والجاه والقوة والفتوة .. فكيف لها الأن فى قبول هذا الملك زوجا لها وهى تعلم عنه وعن ظلمه إلى أهله ومساوءة وسعية الدؤوب وراء النساء الشريفات ومحاولة الإيقاع بهن وسلب شرفهن وعفتهن وصداقته وحمايته التى يفرضها لقطاع الطرق واللصوص مقابل نسبة من المسروقات ..

كل ذلك دار فى نفوسهم وهم يستمعون إلى طلب الملك للزواج من بلقيس .. وعندما أدرك الملك ما يدور داخلهم قال لهم ..

أنها هى التى عرضت عليه نفسها زوجة له .. وأن شكوا فى ذلك فعليهم سؤالها والتأكد منها .

فأظهرت لهم صحة قوله وقبولها الزواج منه .. فـــردوا صـــاغرين كارهين أن يكون هذا الرجل زوجا لملكتهم وملكا عليهم فى المستقبل .

وتم زفافها عليه فى حفل كبير وأظهرت بلقيس سعادة كبيرة وفرحـــة غامرة بزواجها منه .. لدرجة أزعجت كل من حولها غير مصديقين لما يحدث .

وأنتهى الحفل وخرج المدعوين .. وانصرف كل إلى حال ســـبيله .. وانفرت بلقيس بزوجها تلاطفه وتلاعبه وتداعبة وتعطية مـــن الخمـــر كؤوسا حتى سكر وفقد عقله ثم اتزانه وسقط على الأرض فقطعت رأسه وبعثت بها مع جندها حيث علقوها على باب المدينة ..

وفوجئ الناس فى الصباح برأس الملك معلقة .. فأدركوا مكيدة بلقيس وخطتها فى القضاء عليها .. فقد أثرت أن تضحى بنفسها من أجل تنفيذ خطتها والقضاء على هذا الملك بالمكيدة والخديعة بدلا من إراقة الدماء إذا دارت حرب بين البلادين وقد يفوز فيها ذلك الملك .. فلا يعرف أحد دائما نتائج الحروب فقد يكون النصر بين يديك فإذا به يتســـرب إلـــى عدوك فى لحظات .

وفرح الناس فرحا شديدا .. وأصبحت بلقيس ملكة على كل ســـبأ .. بعد أن توحدت كما كان عليها الحال أيام والدها .

وأمرت ببناء قصر كبير للملك لم يبنى مثله من قبل فى البلاد ويقـول الرواه والشعبى أنه لما أمرت ببناء هذا القصر حمـــل لـــه خمسمائة أسطوانه من رخام طول كل واحدة خمسون ذراعا فأمرت بها فنصبـت على تل قريب من مدينة صنعاء وجعلت بين كل إســـطوانتين عشـــرة أذرع ثم جعلت فيها سقفا منظومة بألواح الرخام وألحم بعضـــــها إلـــى بعض بالرصاص حتى سارت كأنها لوح واحد ثم بنت فوق ذلك ســرحا مربعا من أجر وجص فى كل زاوية من زوايا فيه من ذهب مشرفه فـى الهواء وفيما بين ذلك مجالس حيطنها من ذهب وفضه مرصعة بـــألوان الجواهر المربعة . وجعلت فى باب القصر مما يلى المدينة برجا مـــن الرخام الأبيض والأخضر والأحمر وفى جوانبه حجر لحجابها ونوابـــها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

وأما عرشها فقد كانت مقدمته من ذهب مفصص بـــاليواقيت الحمــر والزمرد الأخضر ومؤخرته من فضه مكللة بألوان الجواهر وله أربـــع قوائم . قائمة من ياقوت أحمر وقائمة من ياقوت أخضر وقائمـــة مــن زمرد أخضر وقائمة من در أصفر وصفائح السرير من ذهب وعليـــه سبعون بيتا وعلى كل بيت باب مغلق وكان طولة ثمــــانين ذراع فـــى الهواء فذلك قول الله نعالى " وأوتيت من كل شئ " أى ما تحتاج اليه فى الملك والآلة والعدة ولها عرش عظيم أى سرير ضخم .

وبعد أن استقر الملك لبلقيس سألت أهلها ووزرائها عما كـــان يعبـد أبائهم .. فقالوا كانوا يعبدون إله السماء ..

قالت وأين هو ؟

قالوا : هو فى السماء وعلمه فى الأرض .

قالت : فكيف أعبده وأنا لا أره ولست أعرف شيئا أشـــد مـــن نـــور الشمس فنحن نراها ونحس بها وهى تملأ الدنيا نورا وضيـــاء وتعمـــل على نمو النباتات والأزهار والأشجار .. فهى تعطينا الحيـــاة والـــدفء فهى أحق بالعبادة .

وسجدت للشمس .. وأمرت كل وزرائها وشعبها أن يســـجد للشـــمس فإمتثلوا لأمرها .. وعبدوها وكانوا يسجدون لها إذا طلعت ويســـجدون لها إذا غربت وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن الهداية .

وعاشت سبأ حياة هادئة سعيدة تنعم بنصرها ووحدتـــها وحضارتـــها التى لم يكن مثلها فى البلاد .

حتى طاف من فوقهم سليمان عليه السلام •

كان نبى الله سليمان قد انتهى من بناء بيت المقدس وعزم على الخروج الى مكة المكرمة ارض الحرم فتجهز للمسير واصطحب معه الناس والجن والشياطين والطيور والوحوش وحملتهم الرياح بأمر سليمان حتى وصلوا الى الحرم فأمضوا به ماشاء الله لهم ان يمضوه من ايام وليال حتى اذا قرب القرابين وقضى المناسك وبشر اهله بخروج محمد علية الصلاة والسلام وانه سيكون اخر الانبياء وخاتمهم وسيدهم وان ذلك مثبت فى زابورهم حتى رغب فى زيارة اليمن ٠

يقول العلماء بأخبار القدماء انه خرج من مكه صباحا واتجه ناحية اليمن يوم نجم سهيل فوصل صنعاء وقت الزوال ورأى أرضا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها فأحب النزول بها ليصلى ويتغذى وذهب الهدهد يبحث لهم عن ماء .. لكنه تأخر كثيرا وغضب سليمان غضبا شديدا عندما لم يجده وقال لأعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنة او ليأتينى بسلطان مبين ٠

يقول سبحانه وتعالى : " وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغئبين ٠ لأعذبنه عذابا شديا أو لآذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ٠ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأه تملكهم أوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ٠ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٠ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخب فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٠ الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ٠ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ٠ إذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فإنظر ماذا يرجعون ٠

وكتب سليمان كتابا : من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ . بسم الله الرحمن الرحيم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد . أن لاتعلوا على وأتونى مسلمين .

وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد إذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم وكن قريبا منهم فإنظر ماذا يردون من الجواب.

فأخذ الهدهد الكتاب واتى به الى بلقيس حيث كانت تقيم بمدينة مأرب فدخل الى قصرها • وكانت قد غلقت أبواب القصر واحكمت إغلاقها وأخذت مفاتيحها ووضعتهم فى مكان أمين ومضت الى فراشها واستلقت على ظهرها تنظر الى أشعة الشمس المتسربه من خلال كوة فى حجرتها تتعبدها فدخل الهدهد من خلال الكوة فحجب أشعة الشمس عنها بعد ان فرد جناحيه بها فعم المكان ظلام أثار فضولها فنظرت فإذا بالهدهد يلقى اليها بكتاب سليمان .

اخذت الكتاب وبدأت فى قراءته - كما يقول وهب بن منبه - فقد كانت تعرف اللغة العربية حيث كانتمن قوم تبع ابن شرحبل الحميرى . فلما رأت خاتم سليمان عليه انتابها رعدة شديدة وخوف مما سيأتى به المجهول .. فقد أيقنت انه أعظم ملكا منها لآن الطير فى خدمته وهذا لا يتأنى الا لانسان عظيم لم تسمع به من قبل .

قرأت الكتاب والهدهد غير بعيد عنها وجمعت الملأ من قومها وهم إثنا عشر الف تحت امرة كل واحد منهم مائة الف مقاتل وأخبرتهم أنه القى اليها كتاب كريم وقال الضحاك اسمته كريما لآنه كان مختوما . ويقول ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : كرم الكتاب ختمة " . وقيل إنها اسمته كريما لآنه كان مصدرا بسم الله الرحمن الرحيم فذلك قول الله تعالى : " انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وإتونى مسلمين . "

" قالت : يا إيها الملآ إفتونى فى آمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .

" قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فإنظرى ماذا تامرين . "

قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون • وإنى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون .. "

وكانت هديتها صفائح من الذهب فى أوعية الديباج .

فلما بلغ ذلك سليمان امر الجن فموهوا له الآجر بالذهب ثم أمر بــــه فألقى فى الطريق ، فلما جاء رسلها رأوه ملقى فى الطرقات وفى كـــل مكان فشعروا بالحرج لآن ما جاءوا به وكانوا يعتقدون أنه سوف يسـعد سليمان وقومة ويفرحوا به وجدوه ملقى فى كل مكان دون اكـــتراث او اهتمام من احد بقيمته.

ويقول وهب بن منبه وبعض من اهل الكتاب ان بلقيس دبرت مكيــدة لسليمان لكى تختبر حقيقته فعمدت الى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام فألبست الجوارى لباس الغلمان وألبست الغلمان لباس الجوارى وجعلــت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقا من ذهب وفى أذانــهم اقراطا . وحملت الجوارى على خمسمائة فرس والغلمان على خمسمائة برذون وعلى كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر واليـــاقوت . وارسلت اليه ايضا المسك والعنبر وعلبه بها دره ثمينه غـــير متقوبــه وجذع خرزة متقوبة معوجه الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقـال له المنذر بن عمر وضمت إليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقـــل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية وقالت في كتابها أن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء واخبرنا بما فيه ألحقنه قبل أن تفتحها وإثقب الذرة ثقبا مستويا وإدخل خيطا فى الخرزة . ثم أمرت الغلمان فقالت لهم : اذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشـــبه كـــلام النســاء . وأمرت الجوارى ان يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجـــال . ثـــم قالت للرسول إنظر إلى الرجل اذا دخلت عليه فإن نظر اليـــك نظـــرة غضب فإعلم أنه ملك فلا يهولنك منظرة فأنا أعز منه وان رأيتة رجلا بشوشا لطيفا فإعلم أنه نبى مرسل فتفهم كلامة ورد الجواب .

وانطلق الرسل بالهدايا الى سليمان . وسبقهم الـــهدهد إليــه وأخــبره بالخبر فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنا من الذهب والفضــــه وأن يوسعوا المكان الذى هو فيه إلى تسع فراسخ وأن يكون هنـــاك ميــدان يبنى بلنبات الذهب والفضه وأن يجعلوا حول الميدان حيطان مشرفه من الزهب والفضه ففعلوا ذلك .

فقال لهم : أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر فقالوا يا بنى الله إنا رأينا فى بحر كذا ودواب مختلف ألونها لها أحنجة وأعراف ونواصى . فقال سليمان على بها الساعة فأتوا بها وشدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضه وألقوا بها علوفها فيها . ثم قال للجن على بأولادكم فإجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره .

وقعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسى عن يمينه ومثلها عن يساره وأمر الشياطين أن يصطفوا صنوفا وكذلك طلب من الأنس والوحوش والسباع والهوام والطيور . واصطفوا جميعا عن يمينه وعن يساره فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة شعروا بالمهانه وبضآلة ما يحملونه من هدايا .

ووقعوا بين يدى سليمان وأعطوه كتاب الملكة فلما نظر إليه وقرأه سأل عن العلبة فحركها فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما فيها .

فقال للرسول إن فيها درة ثمينة بلا ثقب وخرزة مثقوبة معوجة الثقب فقال له الرسول : صدقت فإثقب الدره وأدخل الخيط فى الخرزه .

فقال سليمان : من لى بثقبها .

فسأل الأنس فلم يكن عندهم علم بذلك . وسأل الشياطين فقالوا له إرسل إلى الأرضة . فأرسل إليها فلما أتت أخذت شعره فى فيها ومرت فى الخرزه حتى خرجت من الجانب الآخر وقال سليمان : سلى حاجتك . قالت : أن تصير رزقى فى الشجر . قال : لك ذلك .

ثم قال من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يا نبى الله . فأخذت خيطا فى فيها ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر . فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : أن تصير رزقى فى الفواكه .

قال لها : لك ذلك .

وميز سليمان عليه السلام بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم . فكانت الجارية تأخذ الماء من الأنية بإحدى

يديها ثم تجعلها في اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه . أما الغلام فكان يأخذ من الأناء بيديه ويضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد . وكانت الجارية تصب الماء صبا والغلام يحدر الماء على ساعده حدرا . فميز بينهم بذلك .

ورد الهدية إلى أصحابها وهو يقول للرسول إن ما عندى أفضل بكثير وقد أعطانى الله سبحانه وتعالى كل ما أريد وأطلب ومع ذلك فالدنيا ليست همى ولا هدفى وإنما رضاء الله تعالى هو ما أسعى إليه بعد أن أكرمنى بالنبوة والحكمة .

وقال للمنذر بن عمر أمير القوم : إرجع إليهم بالهدية فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون إن لم يأتوني مسلمين. بجنود وإنما رسول من عند رب العالمين وجمعت بعضا من قومها وأغلقت قصرها وذهبت إلى سليمان لترى ماذا سيفعل .

وعلم سليمان بمقدمها إليه فأراد أن يسبقها عرشها حتى تجده عند وصولها إليه .

يقول تعالى : " قال يا ايها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم .

وأمر سليمان بأن يتم اجراء تغيير فى عرشها بالزيادة أو النقصان أو أن يجعلوا أعلاه أسفل وأسفله أعلاه لينظر أتهتدى إلى عرشها فتعرفه أم تكون من الجاهلين الذين لا يهتدون إليه . وماذا إذا كانت على درجة من الذكاء والفهم والوعى والإدراك أم لا .

وقد دفع سليمان إلى فعل ذلك - كما يقول وهب بن منبه ومحمد بن كعب وغيرهما - أن الشياطين خافت ان يعجب بها سليمان ويتزوجها ويرزق منها بالأولاد فيفشي إليها أسرار الجن فلا ينكفون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأرادوا أن يبعدوه عنها وقالوا له : إن فى عقلها

خلل وأن رجليها كحافر الحمار . فاراد سليمان أن يختبر عقلها وقـوة ذاكرتها بتنكير عرشها وان ينظر إلى قدميها ببناء صرح من قواريـر . فلما جاءت بلقيس قيل لها : أهكذا عرشك . قالت : كأنه هو لشبهته بـه وكانت قد تركته خلفها فى بيتها خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فلم تقر بذلك ولم تنكر أيضا . فايقن سليمان بكمال عقلها.

وأرجع وهب بن منبه فعلة بنى الله سليمان هذه لتكون ردا على فعلتها معه عندما إختبرته بإرسال الفتيات فى ثوب الفتيان والفتيان فى ثيـات الفتيات .

ودخلت بلقيس الصرح فلما رأته حسبته لجة من الماء الكثيف فكشفت عن ساقيها لتخوض فيه . فنظر سليمان عليه السلام فإذا هـى أحسـن الناس ساقا وقدما غير أن ساقيها ممتلئه بالشعر فصرف نظـره عنـها وأخبرها أنه صرح ممرد بالقوارير وليس بماء فإعتدلت فـى مشـيتها وأرخت ملابسها لتغطى ساقيها .

وجلست بجوار سليمان تفكر فى مكيدة جديدة له علها تعـرف بـها حقيقة وهل هو ملك أو رسول ونبى من عند الله .

قالت له :

- يا سليمان أنى أريد أن أسالك عن شئ

قال لها :

- سلى ما شئت .

قالت :

أسألك عن ماء روى ليس من الأرض ولا من السماء .

وكان سليمان إذا سمع شيئا لا يفهمه سأل عنه الأنس أولا فـإذا لـم يعرفوا سأل عنه الجن فإذا لم يعرفوا سأل عنه الشياطين . فقالوا لـه إن هذا شئ بسيط إئتمر الخيل أن تجرى واملأ الآنيه من عرقها .

فقال لها سليمان :

- عرق الخيل .

فقالت :

- صدقت .

ثم قالت أخبرني عن كون ربك . فوثب سليمان من سريره وخر على الأرض ساجدا ويفكر في إجابة عن سؤالها حتى جاءه جبريل عليه السلام وطلب منه أن يعود إلى مكانه وقال له

يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك ؟

قال : يا جبريل ربي أعلم بما قلت ...

قال جبريل عليه السلام :

– الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فترسل إليها وإلى من حضرها من جنودك وجنودها فتسألها وتسألهم عما سألتك عنه .

ففعل سليمان ذلك . فإذا بهم جميعا قد نسوا هذا السؤال ولم يتذكروا غير السؤال الأول عن عرق الخيل . فعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أنساهم جميعا هذا السؤال .

ودعاها سليمان إلى الإسلام .

فقبلت الدخول في دين الله وقالت :

" رب إني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين " .

ويروى محمد بن اسحاق ووهبه بن مبنه أن سليمان عليه السلام قال لبلقيس بعد أن أعلنت إسلامها أن تختار زوجا لها من قومها حتى يزوجها إياه .

فقالت له ومثلي ينكح من الرجال يا نبي الله . وقد كان لي في ملكي وقومي من السلطان ما كان .

قال لها : نعم . إنه لا يكون في الإسلام إلا ذاك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لك ولكل المسلمين .

قالت : زوجني إن كان ولابد من تبع الأكبر ملك همدان

فزوجها منه وردها مع زوجها إلى اليمن . وطلب سليمان من الجن المختص باليمن أن يساعدهما في بناء بلدهما وأن يقيما المصانع والقصور والمباني الشاهقة وأن ينشروا الحضارة في كل ربوع اليمن .

واستمر الحال كذلك حتى مات سليمان فتوقفت الجن عن مساعدتهما في بناء وتعمير اليمن حتى إنهار حكم تبع وبلقيس مع ملك سليمان عليه السلام .

٢- جراد ... عروس البحر

كانت كعروس البحر جميلة دقيقة الحجم والملامح طـاهرة السـريرة نقية النفس وكأنها الدر المكنون .

وكانت تعيش فى جزيرة وسط الماء مع أبيها الحاكم . وكـان الكـل يسجد له ويتعبد إليه .. فهو الإله . وهو الشافي والعاطى والمانح المعين وصاحب السلطان الكبير والذي لا يرد له قول أو طلب وينفذ له كل أمر مهما كان عسيرا ..

وعلم سليمان عليه السلام بذلك الرجل الذى لا يعبد الله ويأمر شـعبه وأهله بعبادته والتقرب إليه وإطاعة أوامره والدعاء باسمه فى المعـابد . أخبرته الشياطين والجن بأمره وعقد العزم علـى غـزو هـذا الكـافر وإرغامه إما الدخول فى دين الله والإسلام وأما الموت هو وشعبه .

واعد جيشا قويا من الأنس والجن وغزا الجزيرة والتى لم يكن أحـد من أهلها يعتقد أن هناك من لا يستطيع غزوهم لقوة حصونها ومناعتـها وتفرد موقعها بحيث يصعب على أى إنسـان مـهما كـانت قوتـه أن يغزوها.

وحملت الرياح سليمان عليه السلام وجنوده إلى الجزيرة فقتل ملكـها الكافر ودعا أهلها إلى الاسلام فدخلوا فى دين الله أفواجا .

وكان للملك بنت رقيقة كعروس البحر إسـمها (جـراد) سـحرت سليمان بجمالها وأنوثتها وعذوبتها فإستهوته وأتخذها لنفسه أسـيرة ثـم تزوجها .

وفضلها على جميع نسائه وقربها منه ولم يؤخر لها طلبا حتى ضاقت منه زوجاته لكنه مع ذلك لم يكترث لهن فقد وقع قلبه أسير الفتاة الجميلة .. وهو أمر ليس بيده ولا يملكه .. وأصبحت كل طلباتها كأنها أوامـر واجبة التنفيذ .

وأعلنت (جراد) إسلامها ودخلت مع الداخلين فى دين الله لكنه لـم يكن إسلام مؤمنه ..وإنما كانت تتظاهر بذلك إرضاء لسليمان الذى شغله حبه لها عن ما تفعله من ورائه .

فقد إستغلت شياطين سليمان فى عمل تمثال لأبيها الملك والذى قتله بنى الله سليمان عند غزو الجزيرة والبسته كما كان يلبس فى ملكه ثم أخذت تتعبد إليه وتصلى عليه كما كان حالها الأيام الأوائل . أيام الجاهلية .

ونجحت فى إقناع سليمان بأن يأمر شياطينة بعمل هذا التمثال لكى تتذكر به والدها وحتى لا تغيب صورته عن مخيلتها .

يقول تعالى فى سورة سبأ : " ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور "

ولم يعلم سليمان عليه السلام بما حدث فى بيته من مكيدة وفتنه وعبادة الأوثان والأصنام .. واستمر الحال على وذلك أربعين يوما .. تسجد له ويسجد معها خدمها وحشمها من أهلها ..

حتى كان يوم علم فيه (آصف بن برخيا) أحد أصحاب سليمان المؤمنين بما يجرى فى بيته من عباده للأوثان . وكان (آصف) من أحب الأصدقاء إلى قلب سليمان ومن كبار المسلمين والذين يعملوت على نشر الدين وعبادة الله الواحد الأحد . ولم يكن يأخذه فى دين الله لومة لائم ولا يبخل عليه بصحته وجهده وماله رغم كبر سنه ..

وأحتار فى الأمر .. وكيف يبلغ به بنى الله سليمان .. وهداه إيمانه العميق إلى فكرة لا تجرح بنى الله ولا يؤخذ عليه منها شئ ولا تسئ لأحد ولا يفهم منها غيره ماذا يريد أن يقول .

جاء إلى سليمان وقال له .

يا بنى الله . كبر سنى ودق عظمى ونفذ عمرى وقد حان الذهاب منى وقد أحببت أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى عليهم بعلمى فيهم . وأعلم الناس بعض ما يجهلون من كثير من أمورهم فقال سليمان :

أفعل ما تشاء .

وجمع سليمان له الناس فقام فيهم خطيبا . فذكر من مضى من الأنبياء وأثنى على كل نبى بما فيه وذكر ما فضلهم الله به حتى انتـــهى إلـــى سليمان فقال له ما كان أحكمك فى صغرك وأروعك فـــى صغـرك . وأفضلك فى صغرك . وأحكم أمرك فى صغرك وأبعدك من كـــل مـــا يكره فى صغرك .

ثم إنصرف .

فعلم سليمان أن صديقه يريد أمرا ويشير إلى شئ هام بكثرة حديثـــه عنه فى صغره ثم توقف عند ذلك ولم يذكر شيئا عما حدث فى كـبره . بل إن فى حديثه إشارة إلى حدوث أمر جلل لـــه فـــى كـبره . فـأمر باستدعائه لتبين الأمر

وسأله :

ماذا حدث فى آخر عمرى ؟

نظر إليه آصف طويلا بعد أن أيقن أن ما أراد أن يوصله إليـــه قـد وصل .. وقال فى هدوء الواثق :

إن غير الله يعبد فى دارك أربعين صباحا .

قال سليمان متعجبا :

فى دارى !!

قال آصف منهيا الشك باليقين .

نعم فى دارك . أربعين يوما .

قال سليمان عليه السلام .

إنا لله وانا لله راجعون . لقد علمت أنك كنت تقصد شيئا فى حديثـــك وكلامك مع الناس . فقد أشدت بى صغيرا ولم تذكرنى كبيرا .

وانصرف سليمان إلى داره فحطم التمثال وعاقب امرأته وصلـــى لله عسى أن يرحمه ويغفر له ذلته وأن يتوب عليه مما حدث من غفلته عن بيته وزوجته ..

وأمر بإحضار ثيابا طاهرة وخرج إلى الخلاء حيث أمر برماد أفترشه على الأرض ثم جلس فوق الرماد بثيابه الطاهرة وظل يحـــك جسـده

ووجهه فى الرماد والأرض تقربا واستغفار لله من خطيئته حتى يتـوب عليه .

وأخذ يناجى ربه وهو يقول : ما كـان ينبغـى لآل داود أن يعبـدوا غيرك وأن يقروا فى دورهم وأهليهم عبادة إله غيرك .

ولم يزل يدعو ويستغفر ربه ويضع وجهة فى التراب حتى تفصد الدم من عروقه وملأ وجهه واحمرت عيناه من كثرة البكاء . وارتفع وجيـب قلبه خوفا من الله سبحانه وتعالى .

ثم ذهب إلى داره وأعطى خاتمه إلى جاريته (أمينه) حتى يتطـهر . فقد كان من عادته أن لا يلبس خاتمه إلا إذا كان طاهرا .

وتمثل الشيطان فى صورة بنى الله سليمان وطلب من الجارية الخـاتم فأعطته له معتقدة أنه نبى الله وقد فرغ من طهارته . وجلس على سرير سليمان فأتت إليه الطير والجن والانس .

وإنتهى سليمان من الطهارة وطلب من جاريته خاتمه فسخرت منـه وقالت أن سليمان جالس على سرير ملكه فعلـم سـليمان أن الخطيئـة أدركته جزاء تهاونه مع أهل بيته وعبادة الأوثان به .

فخرج إلى الطريق يقول للناس أنا سليمان بن داود فلا يصدقه أحـد ويسخر منه قوم آخرون . ويطارده بعض الصبية علـى انـه مجنـون يدعى أن سليمان نبى الله .

وأدرك سليمان أن عذاب الله واقع به .

رضى بعذاب ربه عسى أن يرضى عنه ربه ويغفر له ذلته .

وذهب إلى البحر يعمل مع الصيادين ويساعدهم فى نقـل بضائعـهم مقابل أجر سمكتين كل يومين . فكان يبيع إحداهما ويشترى بثمنها خبزا ويشوى الثانية ليأكلها .. وظل على هذا الحال أربعين يوما عدد ما عبد الصنم فى بيته .

وأوحى الله إلى صديقة آصف بن برخيا أن يطوف بين الناس ليكشف حقيقة ذلك الشيطان الجالس على عرش سليمان وسألهم إن كـانوا قـد وجدوا إختلافا فى إسلوب الحكم .. فأجمعوا أن كل شئ تغير .. وكأنـه غير سليمان هو الذى يحكم بينهم .

وأدرك الشيطان أن الشر لاحق به بعد أربعين يوما وهى المدة التى عبدت فيها (جراد) زوجة سليمان تمثال أبيها .. فهرب إلى البحر وألقى بخاتم سليمان فيه .. فالتقطته سمكة إصطادها أحد الصيادين الذى كان يمعل عنده سليمان ومع نهاية يومه أعطاه أجره سمكتين باع إحداهما لشراء الخبز وشوى الثانية لطعامه .. فإذا بخاتمه داخلها .. فحمد الله وأثنى عليه بعد أن أيقن أن الله عفا عنه جزاء فعلته ورد إليه ملكه مع هذه السمكه .

وعاد إلى عرشه وأمر شياطين الانس والجن أن يعثروا له على (صخر المارد) ذلك الشيطان الذى تمثل به واحتل عرشه أربعين يوما ..

وأتت به الشياطين وفتحت له صخره أدخل فيها ثم سد عليه بأخرى وشد عليه بالحديد والرصاص ثم قذفت فى البحر عقابا له .

وهذه القصة التى رواها إبن أسحاق الثعلبى فى كتابة قصص الأنبياء المسمى بالعرائس فيها نظر . وقد تكون بعض الأحداث فيها صحيحة ولكن . من غير معقول أن يتمثل الشيطان فى شخصية أحد أنبياء الله . وأنبياء الله معصمون . وأيضا من المستحيل أن يسمح الله سبحانه وتعالى لهذا الشيطان أن يقترب من نساء نبيه وهن مطهرات منزهات عن الهوى وقد جلس على عرشه أربعين ليلة مما دفع رجل الدين صديق سليمان وصفيه (آصف بن برخيا) أن يسأل زوجات سليمان عما إذا كن لاحظن أى فرق فى المعاملة .. فأجبن بنعم فهذا شئ لا يقبله أو منطق أو دين وفى رأينا أنه من الإسرائيليات والتى استحدثت لتضفى على القصة رونقا ومتعه ذهنية وفكرية وتجذب إليها خيال كل إنسان مراهق .

وقد أورد الثعلبى فى نهاية القصة قولا للإمام على كرم الله وجهه أنكر فيه أن يسلط الله سبحانه وتعالى الشيطان على نساء أنبيائه وتساءل كيف يعتقد أحد ذلك وقد نزه الله أنبيائه عن مثل هذا القبح .

ويقول الثعلبى أن هذا القول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب إلى التقوى .

ويدعم هذا الراى ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن سبب فتنة سليمان عليه السلام أنه تزوج بها وهى من غير بنات بنى إسرائيل . فكان عقابه من الله أن يزول ملكه أربعين يوما عدد الأيام التى قضتها فى داره تعبد فيها صنم أبيها .

فكأن زوال ملكه كان عقابا له لأنه تزوج من فتاه من غير بنات بني إسرائيل .. وليس لأنه كان غافلا عما يجرى فى بيته من عباده الاصنام .. وهو نبى الله الذى يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الخالق البارئ المصور .

وسبحان الله عما يدعون .

سالومي .. قاتلة يحيى النبي

لم يكن ليحيى النبى رغبة فى النساء .. ولا ميل إليهن .. فقد خلقه الله (حصورا) يدعو بنى إسرائيل إلى الحق وعبادة الله بعد أن ضل بهم السبيل وتركوا تعاليم . التواره وإنغمسوا فى اللهو والمجون ومعاقرة الخمر والجرى وراء النساء ..

وكثرت السرقات وإستبيحت الحرمات وانتشر الفساد والبغاء فى الأرض وعرضت النساء ما أمرهن الله بستره .. فأصبح كل شئ ملك من يدفع ..

وسط هذا المستنقع الأسن ولد يحييى نبى الله ومن بعده بستة أشهر ولد إبن خالته عيسى عليه السلام .. دعوة لبنى إسرائيل أن يعودوا إلى الله ..

ولد يحيى لبنى الله زكريا بعد أن طال الدعاء والتوسل إلى الله أن يرزقه الولد الصالح لكى يرثه ويرث آل يعقوب وأن يجعله ربه رضيا فقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا .

وإستجاب الله لدعائه : " يا زكريا إنا نبشرك بغلام إسمه يحييى لم نجعل له من قبل سمياً . "

قال :

- " رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك وهو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ."

قال :

رب أجعل لى آية . "

قال :

آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا . "

" فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكره وعشيا . "

ولم يكلم زكريا أحدا طيلة ثلاثة أيام . قيل أن لسانه أعتقل خلاهم وكان يكلم الناس بالإشارة والاماءة ..

وقيل إنه صمت لا يكلم أحد حتى يتفرغ لذكر الله وشكره على نعمائه وما بشر به من ولد صالح إسمه يحيي " مصدقا بكلمة مــن الله وســيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . "

وكان عمره مائه وعشرون سنه وقيل كان ابن إثنتين وتسعين ســـنه وقيل بل تسع وتسعين سنه . ومهما كان سنه فالمؤكد أنه كـــان شــيخا هرما وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وامرأته (أليصابات) عــاقر لم تنجب وقد بلغت التسعين ولكن الله أصلح له زوجة ورزقه بالولد بعد طوال دعاء .

وقد جاء دعاء زكريا إلى ربه أن يمنحه الولد بعد أن رأى عند مريــم خلال زيارته لها وهى حامل فى عيسى عليه السلام ألوانا مختلفة مـــن الطعام والشراب لم يرها من قبل ولم يكن هذا هو موعدها .. فــأيقن أن الله معها وحارسها ومطعمها حتى تلد نبى الله وكلمته إلى مريم عيســى عليه السلام .

طمع زكريا فى رضاء الله عليه وأن يمنحه الولد الوريث كما منـــح مريم الطعام فى غير موعده ومنح سارة الولد بعد طول عقم وصكــت وجهها وهى تسأل من أين لها الولد وهى عجوز عقيــــم .. ولكــن الله يرزق من يشاء بغير حساب ..

أن الذى منح سارة الولد قادر على أن يصلح لى زوجتى ويعطينـــى الولد .. دار هذا فى نفسه مع شئ من الأمنيات الحلوة .

وجلس فى المحراب يدعو ربه ثم قام وصلى فى المعبد هنـــاك دعــا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعــاء " .. " وإنى خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لـــى مــن لدونك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا " .

ولم يكن زكريا يطمع فى أن يرث إبنه ما له وجاهه فقد كان نجــارا فقيرا يكسب قوت يومه .. ولكنه كان يبتهل إلى الله أن يرزقه الولد حتى يرث منه النبوة والدعوة إلى عبادة الله كما ورث سليمان داود عليــــهما السلام .. وأن يكون حكما وهاديا وناصحا لبنى اسرائيل ..

وكان داود عليه السلام نجارا وكان زكريا أيضا نجارا .

ورزق زكريا بالولد واسماه يحيى فكان أول من سمى بهذا الأسم فـــى هذه الدنيا .. واختلف العلماء فى هذه التسمية .

ابن عباس قال لأن الله أحيا به عقر أمه .. وقال قتاده وغـيره لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة .. وقال الحسن بن الفضل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يتغير ويهم بمعصية .. قيل أنه سمى بذلك لأنـــه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وتحقق له الحلم الكبير .. ولكن جنود وجواسيس الملـــك هـيرودس كانوا يجوسون فى كل أرجاء فلسطين بحثا عن كل طفل رضيع لقتله .

فقد اخبره ثلاثة من أحبار المجوس الذين كانوا يعبـــدون النجــوم أن طفلا صغيرا ولد وانه سيكون له شأن كبير وسيقضى على مملكته فـــى فلسطين .. ولابد من قتل هذا الطفل قبل ان يشب عن الطـــوق ويشـــتد ساعده ويقضى عليه وعلى ملكه ..

وبعث هيرودس بالبصاصيين والجواسيس يلتمسون الخبر فى طـــول البلاد وعرضها ..

وكان يحيى قد ولد .. وكان عيسى قد ولد من بعده بسته أشهر ..

وأخذت السيدة مريم إبنها وهربت به إلى مصر .. وأخذت اليصابـات إبنها يحيى وهربت به إلى الصحراء .

ووعد الملك أحبار المجوس بمكافأة كبيرة إن هم تعرفوا علـــى هـذا الطفل وأحضروه له لقتله والتخلص منه ..

وذهبوا إلى حيث عيسىبن مريم وتعرفوا عليه وأيقنوا أنه ذلك النبـــى الذى سوف يبعثه الله هاديا لبنى إسرائيل .. وستكون معجزاتـــه إشــفاء المرضى وأحياء الموتى .. فتباركوا به وقدموا له الهدايا .. ونصحـــوا أمه بالهروب به من فلسطين حتى ينتهي عهد هذا الملك الظالم .

وأخذت السيدة مريم إبنها عيسى وهربت به إلى مصــــر .. وأخـذت إليصابات إبنها يحيى وهربت به إلى قلب الصحــــراء تتبــع خطـوات زوجها زكريا وقد ألقى الليل سدوله وسواده الكثيف وغطى الصحـــراء بظلمة حالكة لم تستطيع حتى نجوم السماء اللامعة أن تبدد منها شيئا ..

ظلام فى ظلام فى ظلام .. ظلمات بعضها فوق بعض .

وتحسس زكريا مكانه .. فايقن أنه بعيد عن يد الملك وعيونـــه .. وأن الصحراء قد إحتواتهم وضمتهم وفرضت عليهم حمايتها .. وتحركـــت رمالها لمواجهة أى قادم والتصدى له وابتلاعه إن حاول الاعتداء علـــى زكريا وأهله وولده ..

أيقن أن الله يحميه وأهله .. وكما رزقه بعد مشيب فلابد وأن يوفر له الرعاية حتى يشب ابنه ويصبح أحد أنبياء بني اسرائيل وتذكر إبراهيـم عليه السلام عندما أخذ هاجر واسماعيل وتركهما فى الصحـــراء ولـم يضيعهما الله بل بارك فيهما وفى نسلهما حتى اليوم وتكاثر حتى أصبـح يملأ الصحراء ويفيض منها على ما جاورها من بلاد وكما ترك ابراهيم هاجر واسماعيل فى قلب الصحراء .. تـــرك زكريـــا ابنـــه وزوجـه اليصابات تحرسه وتحميه داخل الصحراء .. وعاد إلى مكانه فى المعبد يدعو الله ويقيم الصلاة وينحر الذبائح .. فقد كان كاهن المعبد والمسئول عن المذبح وإقامة الصلاة فى المحراب ..

وكانت غيبته ستثير الشك فى نفوس النـــاس وخاصـــة البصـــاصيين وجواسيس الملك الذين يبحثون عن كل طفل صغير فـــآثر أن يتواجـد بصفة دائمة داخل المعبد .. حتى يراه الناس ولا يشك أحد فيما فعل لكن قلبه كان مع طفله الصغير والذى لم يتجاوز عاميين وأمه العجوز والتى فى حاجة إلى حماية ورعاية ومساعدة ..

وترك أمره وأمرهما إلى الله .

مات الملك هيرودس .. وعاد يحيى إلى المدينة وعاد عيسى وأمه مريم من مصر إلى فلسطين .. وتولى هيرودس الابن الملك .
وبدأ الإثنان دعوتهما إلى عبادة الله وتخليص بني إسرائيل مما إتغمسوا فيه من فساد ونفاق وزنا وخمر وميسر حتى تاهت من أيديهم ومن قلوبهم تعاليم الديانه اليهودية وتعاليم أنبياء بني إسرائيل والذين بعثهم الله إليهم ليعيدوهم إلى طريق الحق بعد الضلال .
وكان يحيى فتى وسيما جميلا فيه نعومة . حسن الوجه والصورة . لين الجناح قليل الشعر . قصير أصابع اليد طويل الأنف مقرون الحاجبين . رقيق الصوت . كثير الغيرة . قويا فى طاعة الله وعبادته " وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ".
ومنذ نعومة أظفاره وهو يتعبد لله الواحد الأحد ولم يعرف عنه أنه كان يلعب مع الأطفال ويأتى حركاتهم ويعيش طفولته كما هو الحال عند كل الناس وحتى الأنبياء .. وكأنما كان يعلم أن حياته قصيرة وأيامه معدودة فى الدنيا لن تجاوز أيام الشباب فأنغمس فى عبادة الله والتقرب إليه ..
وقد حاول أترابه يوما أن يدعوه إلى اللعب معهم ولكنه رفض وقال لهم :
ما للعب خلقت ..
ووصفه الناس فى فلسطين بأنه نبى صغير . فقد كان على صغره يعظ الناس فى أعيادهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى . ثم إمتدت به الدعوة حتى إنتشرت فى كل أرض الشام .
وروى ابن اسحاق فى كتابه قصص الأنبياء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان من زهد يحيى أنه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والرهبان وعليهم مدارع الشعر والصوف وبرانس الصوف وإذا هم قد خرقوا تراقيهم وسلكوا فيها السلاسل وشدوا بها إلى سوارى المسجد . فلما نظر إلى ذلك أتى أمه وقال : يا أماه إنسجى لى مدرعه من شعر وبرنسا من صوف حتى أتى إلى بيت المقدس واعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فقالت له أمه : حتى يأتى نبى الله زكريا عليه السلام فأؤامره بذلك فلما دخل زكريا أخبرته بما قال لها يحيى .

فقال له زكريا : يا بني ما يدعوك إلى هذا وانما أنت صبى صغير .

فقال : يا أبت . أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

قال : بلى

فقال لأمه : إنسجى لنا مدرعة من الشعر وبرنس[1] من الصوف ففعلت. فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه ثم أتى يوم المقدس وأقبل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه .

فنظر ذات يوم إلى ما قد نحل من جسمه فبكى : فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أتبكي على ما قد نحل من جسمك وعزتى وجالى لو إطلعت على النار إطلاعة لتدرعت مارع الحديد فضلا عن المسوح .

فبكى يحيى حتى آكل الدمع لحم خديه وندت للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه . وأقبل زكريا واجتمع الأحبار والرهبان فقال زكريا لابنه يحيى :

ما يدعوك لهذا يا بنى ؟ .. إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقر بك عينى .

قال : أنت أمرتنى بذلك يا أبت .

قال : ومتى ؟

قال ألست القائل أن بين الجنة والنار عقبة كؤد لايقطعها إلا الباكون من خشية الله تعالى .

قال : بلى

قال : فجد واجتهد وقام ونفض مدرعته فأخذ أمه .

فقالت : أتأذن لى يا بنى أن أتخذ لك قطعتين من لبد يورايان أضراسك وينشفان دموعك .

فقال لها : شأنك .

فإتخذت له قطعتى لبد يواريان أضراسه وينشفان دموعه فبكى حتى إبتلتا من دموع عينيه ثم أخذهما فعصرهما فتخدرت الدموع من بين

أصابعه . فنظر زكريا إلى أمه وإلى دموعه فرفع رأسه إلـــى السـماء وقال .
اللهم إن هذا إبني وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين .
وكان زكريا إذا أراد يوما أن يعظ بنى إسرائيل إلتفت يمينا وشـمالا فإذا رأى يحيى لم يذكر جنة ولا نارا .
فجلس يوما يعظ بني إسرائيل وأقبل يحيى قد لف رأسه بعباءة وجلس في غمار القوم فإلتفت زكريا يمينا وشمالا فلم ير يحيى فأنشأ يقــول : حدثني حبيبي جبريل عن الله عز وجل فى جهنم جبل يقال له السـكران فى أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان خلق لغضب الرحمن تبــارك وتعالى .
فى ذلك الوادي جب قامته مائة عام . فى ذلك الجب توابيت من نار . فى تلك التوابيت صناديق من نار وثياب من نار وأغلال من نار فرفــع يحيى رأسه وقال : واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن .
ثم خرج هائما على وجهه .
فقام زكريا من مجلسه ودخل على ام يحيي فقال لها : يـــا أم يحيـــي قومى فاطلبي يحيى فإن تخوفت أن لا نراه إلا وقد ذاق الموت .
فقامت وخرجت فى طلبه حتى مرت براعى غنم فقالت له :
يا راعى هل رأيت شابا من صفته كذا وكذا .
قال : لعلك تطلبين يحيي بن زكريا .
قالت : نعم ذلك ولد ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه .
فقال : تركته الساعة على عقبة كذا ناقعا قدميه فى المـــاء . رافعـا بصره إلى السماء يقول : وعزتك يا مولاى لا أذوق بارد الشراب حتى أنظر إلى منــزلتى منك .
فأقبلت أمه . فلما رأته دنت منه فأخذت برأسه ووضعته بيــن يديـها وناشدته بالله أن ينطلق معها إلى المنزل فإنطلق معها إلى المنزل فقـالت له : هل لك أن تخلع مدرعتك الشعر وتلبس مدرعتك الصوف . فإنـــه لين . ففعل . ثم إنها طبخت له عدسا فأكل وأستوفي فذهب به النــوم .

فلم يقم لصلاته . فنودى فى منامه : يا يحيي أردت دارا خيرا من دارى وجوارا خيرا من جوارى .

فاستيقظ وقام وقال : رب أقل عثرتي . وعزتك لا أستظل بظل سوى بيت المقدس . ثم قال لأمه :

ناوليني مدرعة الشعر . فقد علمت أنكما ستوردانى المهالك فتقدمت إليه أمه ودفعت إليه المدرعة وتعلقت به . وقال لها زكريا :

يا أم يحيى دعيه فإن ولدى قد كشف له عن قناع غفلته ولن ينتفع بالعيش .

فقام يحيى وبلس مدرعته ولبس البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس فجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان ولم يرتكب ذنبا حتى وفاه أجله .

يقول الأمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيي بن زكريا . وما ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى . "

وعن أبى سعيد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسن والحسين سيد ا شباب الجنة إلا إبنى الخالة يحيي وعيسى عليهما السلام . "

وقال أبو نعيم الحافظ الاصبهانى : حدثنا إسحاق بن أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، سمعت أبا سليمان يقول :

خرج عيسى بن مريم ويحيي بن زكريا يتماشيان ، فصدم يحيي امرأة فقال له عيسى : يا بن خاله لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبدا " قال : وما هى يا بن خالة ؟

قال : امرأة صدمتها " قال : والله ما شعر ت بها . " قال : سبحان الله بدنك معى . فأين روحك ؟ " فقال : معلق بالعرش ولو أن قبلى إطمأن إلى جبريل لظننت أنى ما عرفت الله طرفه عين .

وكان يحيى يمضى كل وقته فى البريه يناجى ربه ويتعبد له . وقد أثرت فيه رحلة الطفولة مع أمه عندما هربت به من الملك هيرودس

إلى الفيافى والصحراء لكى تنفذه من منه ومن قتله إياه بعد أن علـــم أن نبى الله زكريا قد منحه الله ولدا بعد طوال شيخوخة واشـــتعال الـــرأس شيبا فجد فى طلبه لقتله عسى أن يكون ذلك الطفل الذى سيعمل يومــــا على هدم ملكه كما أخبره أحبار المجوس عبدة النجوم وهربوا منه قبـــل ان يتمكن منهم بعد أن علموا أنه علم بعلمهم بمكان هذا الطفل ..

ومن يومها أحب يحيي عيشة الصحراء وأقبل عليها يتعبد فيها وكـــان يقول أنا صوت صارخ فى البرية .

وإفتقده يوما زكريا بعد ان غاب عنه ثلاث أيام فخرج يبحـــث فـــى البرية فإذا يحيى قد إحتفر قبرا وأقام فيه يبكى على نفسه . فقال :

يابنى أنا أطلبك من ثلاث أيام وأنت فى قبر قد إحتفرته قائم تبكى فيه؟

فقال : يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن الجنة والنار مفازة لا تقطـــع إلا بدموع البكائين .

فقال له : إيك يا بنى

وبكيا جميعا .

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا فى طلبه فوجـــداه عنـــد بحـــيرة الأردن . فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيــــه مـــن العبـــادة والخوف من الله عز وجل .

وكان طعامه العشب وورق الشجر ويشرب من ماء الأنهار ويتغـــذى بالجراد فى بعض الاحيان ويقول : من أنعم منك يا يحيـــي ؟ ! .. وإذا سأله الناس من أنت ؟

قال : أنا صوت صارخ فى البرية .

وجاءه أمر الله بدعوة بنى إســـرائيل إلـــى عبـــادة الله عـــز وجـــل وانحصرت دعوته فى خمسة أشياء : أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا . وبالصلاة .. والصيام .. والصدقة .. وذكر الله عز وجل .

يقول الأمام أحمد : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

إن الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بـــهن وأن يـــامر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن . وكاد أن يبطئ (فقال له عيســـى عليـــه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إســـرائيل

أن يعملوا بهن . فأما أن تبلغهن وأما أن أبلغهن : فقال : " يا أخي إني أخشى أن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي " قال : فجمع يحيي بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن . وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا . فإن مثل ذلك مثل من إشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده . فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك . وأن الله خلقكم ورزقكم فإعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت . فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وأمركم بالصيام . فإن الله مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ويربح المسك . وأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة : فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : هل لكم أن أفتدى نفسي منكم . فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرا . فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في إثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه . وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

وأنس بنوا إسرائيل إلى يحيي وتجمعوا حوله يستمعون إلى كلماته ونصائحه ويستشيرونه فيما يقابلهم من مشاكل الحياة .. واصطفاه الملك الجديد (هيرودس الأبن) واتخذه مستشارا له في شئون حياته وسعى إليه أينما كان يستمع إليه . وأوصى الناس به خيرا وألا يتعرض أحد له

واصبح يحيي من أصدقاء (هيرودس الابن) ومن أحب الناس إلى قلبه ..

حتى كانت حكاية الملك مع زوجة أخيه ثم ابنتها سالومى .

عشق هيرودس الابن زوجة أخيه (هيروديا) وهام بها حبا حتى ملكت عليه شغاف قلبه وأنسته كل ما حوله حتى أوشك أن يفقد لبه .

وكانت هيروديا امرأة مجربه .. لعوب تعرف كيف تأسر الرجال وكيف تعاملهم وكيف تجعلهم يهيمون بها حبا ويركعون تحت قدميها طلبا للحظة وصال أو نظرة عطف أو لمسة يد .. أو قبلة إذا بلغ الرضا منها مداه ..

وكانت جميلة .. تركزت فيها كل محاسن المرأة ومفاتنها .. بيضاء .. صافية البياض كأنه لبن مصفى طويله . هيفاء . ناعمة البشرة وكأنها الحرير . عطرة بضه تكاد رائحتها تنفذ إلى الأعماق فتأسر قلوب الرجال من حولها وتحولهم إلى شبه مخلوقان مسحورة بها وبفتنتها وجمالها فيأخذون فى التقرب إليها والتعبد فى محراب جمالها .. وتفعل بهم ما يحلو لها .

وكانت تجيد الحديث وانتقاء الكلمات وأختيار الملابس .

وكانت مجربة ومحنكة على الكر والفر .. تعرف متى تفر ومتى تقف لتشعل رغبة الصياد فى إصطيادها فيسعى إليها تاركا كل شئ يبغى منها الوصال .. فإذا هى تفر منه إلى مكان بعيد .. فيظل يسعى من ورائها حتى تتقطع أنفاسه ويخر تحت قدميها .جثة هامدة أو طالبا الصفح والرضى والوصال ..

فترضيه بابتسامة راغبة واعدة .. وتنصرف عنه بعد أن ضمنته لتبحث عن صيد جديد عسير المنال .. ولم يكن زوجها فيليبس راضيا عما تفعله .. لكنه لم يكن يستطيع حيالها شيئا .. فهو أحد ضحاياها منذ عرفها .. فقد أذاقته لوعة الهوى والشوق إليها وأعطته ما أرادت فقط .. أما ما كان يريد فلم يستطيع أن يحصل عليه إلا بالزواج منها .

ونجحت هيروديا فى تحقيق مأربها والأنضمام إلى الأسرة المالكه وأن تصبح زوجة شقيق الملك .. لكنها سرعان ما اكتشفت ضعف زوجها .. وقوة شخصية أخيه .. فأخذت تتقرب إليه حتى احتوته وأصبح هو الآخر أحد رعاياها وطوع أمرها ..

وفى ظلمة الليل تسللت إليه فى مخدعه وكان فى إنتظارها وقد أرقه الشوق إليها وإلى جمالها وخفة دمها وحسن كلماتها وجمال وجهها وطول شعرها الذى يحب أن يأخذه بين أنامله ويداعبه ويجذبها منه فى أحيان كثيرة كلما أخذهما الغرام .

كان قلبه يدق حتى خيل إليه أن كل مملكته تسمع دقاته وتعرف أسراره وشوقه المحرم لزوجة أخيه .. ولم يكن يبالى بما يحدث .. فهو يعرف أن كل عمال القصر وموظفيه يعرفون بهذه العلاقة المحرمة .. وهم يرونها قادمة إليه مع الليل متسللة من جناح شقيقه .. لكن أحد منهم لا يستطيع أن يقول شيئا .. فالموت مصيره .. وكان يعرف أن الحديث فى البيوت يدور عن حكايته وغرامه وعشقه لهيروديا زوجة شقيقه ..

وكثيرا ما ألمح إليه ياوره الخاص بذلك خوفا عليه ".. لكنه كان يتجاهل الأمر ويسارع إلى تغيير مجرى الحديث ..

لا شئ يهم .. مقابل لحظة حب مع هيردويا ..

قالها فى نفسه وهو ينظر فى المرآة ليرى وجهه قبل أن تأتى إليه هيروديا .. فالليلة موعدها ..

أعد زجاجات الخمر المعتق .. ونثر العطر فى الحجرة وارتدى أجمل ثيابه ..

وتبسم مع سماع صوت أقدامها وهى تتسلل إلى داخل حجرته .. وألقت بنفسها بين يديه .. وسقته من شهد رضابها حتى ثمل وأصبح طوع بنانها ..

فقد إنتوت الليلة أمرا .. ولا بد من تحقيقه .

وأسلمت له نفسها فى حب وعشق وهيام لم يعرفه من قبل حتى إرتوى وشبع

قالت له بعد أن أسكرته بحبها .

لابد من التخلص من أخيك فيلبيس بأى طريقة تراها .. فقد كرهت أن آتى إليك ليلا كما يفعل اللصوص .. وأنا أحب أن آتيك نهارا جهارا دون خوف من أحد ..

قال بعد أن استمع إلى كلماتها ولمس دفء مشاعرها :

وكيف ذلك .. إنه أخي فماذا أفعل له .. ؟
فكر أنت فى طريقة تريحك وتريحنا وتجمع بيننا .
أعطنى مهله أياما حتى أرى ما يمكن عمله ..
قالت وكأنها وصلت إلى مقصدها وقبل أن يضعف وتـأخذه الشـفقه على أخيه :
لن ترانى بعد اليوم .. فقد سئمت نظرة الخدم والحشم وجنود الحراسة وهى تتبعنى إليك فى الليل .. وأخاف أن يكتشف أخيك العلاقـة بيننـا فيحدث بينكما ما لا يحمد عقباه ويكون فيـه ضعـف لكمـا وللمملكـة وإستغلال للآخرين للقفز على السلطة وتولى مقاليد الحكم والملك .
أخذته ابتسامة باهته ميته حزينة . فقد كان يعرف كما تعرف هـى أن أخيه يعرف العلاقة الأثمة بينهما .. لكنه كان اضعف مـن أن يواجـه الموقف فلجأ إلى الخمر يغمس فيها همه وذله وضعفه .
فقال لها يحاول إنهاء الموقف :
دعى الأمر لى .. فقد تأتى الأيام بما نحب ونشتهي ..
وتسللت من مخدعه عائدة إلى مخدعها .. وهى موقنه انها نجحت فى خطتها .. وأنها ستكون الملكة .
وأخذ هيرودس يمعن التفكير فيما يمكن أن يفعله حتى يضمن وصـال حب هيروديا ..
وأشار عليه ياوره الخاص بأن يشن حربا على شقيقه بأى تهمه .. ثم يتخلص منه بوضعه فى السجن .. وبعدها يخلو له الجو ويسـتطيع أن يتزوج منها .
وفعل ما أشار عليه به ياوره الخاص .. ووضع شقيقه فيليبـس فـى السجن .. وظن أن الأمر قد استقر له وأن زواجه من هيروديا أصبـح بين يديه .. ولم يعد هناك من شئ سوى مباركة موافقة صديقة يحيي .. وسوف يوافق على زواجه بها .
وبعث إليه يستأذنه فى الزواج منها .
لكن يحيي وفض الموافقة .. وأعلن أنه زواج ملعون ومرفوض مـن الله ومحرم فى شريعته ..

وحاول الملك إسترضاء يحيي أحيانا بالهدايا والعطايا التى كانت تعود إليه دائما لرفضه إستلامها .. واحيانا أخرى بالتهديد والسجن ..

لكن يحيي كان يخاف الله .. فلم يخف منه وظل على موقفه رافضـا لهذه الزيجة المحرمة ..

فأشارت هيروديا على الملك أن يقتل أخاه حتى تصبح ملكا وزوجته على شرع الله ومباركة نبى الله يحيي ..

وسولت له نفسه قتل أخيه .. فقتله ..

لكن يحيي إزداد إصرارا على رفض هذا الزواج المحرم وأخذ ينشـو بين جموع بنى إسرائيل قصة العلاقة المحرمة وكيف قتل الملك أخـاه لكى يتزوج من امرأته ..

وثارت الناس .. وغضب الملك .. وأمر بوضع يحيي فى السـجن .. واستمر به عشرة أشهر .. ومع كل يوم يقول للملك :

لا تصح لك هيروديا زوجة أبدا .. فقد إرتكبت معصية كبيرة بقتـل أخيك .. وتريد أن ترتكب معصية أخرى بالزواج من زوجته .

وتمسك يحيي برأيه وقوله ولم يعدل عنه أبـدا .. وهـاج الملـك .. وهاجت هيروديا وأبغضت يحيي بغضا شديدا وعزمت علـى الأنتقـام منه.

بعثت هيروديا بإبنتها سالومى إلى يحيي فى سجنه تراوده عن نفسها .
وكانت سالومى بنت أمها حلاوة وطلاوة وجمالا وسحرا وكانت تزيد عليها بشبابها وصغر سنها وأجادتها للرقص والتفنن فى إظهار مفاتن الجسد وما حرم منه وما لم يحرم ..
وكانت تجيد أيضا فنون الكلام والحديث والمداعبة وكأنها ذات خبرة عريقة فى مجال الغرام والهوى .. وقد إستمعت كثيرا من بنى إسرائيل عن يحيي وفضائله وما يدعو إليه من عبادة الله الواحد الأحد والصلاة والزكاة .. وكانت تصبوا إلى لقائه والتعرف به .. فكثيرا ما سمعت أقرانها من الفتيات وهن يتحدثن عن جماله ورشاقته وحلاوته ويتمنيين رضاءه .
لكنه كان دائما أبدا هائما فى حب الله يدعو إلى عبادته ولا يخاف فيه لومة لائم وقررت أن تستجيب لدعوة أمها وتنفيذ خطتها حتى تتمكن على الأقل من رؤيته والحديث معه وجها لوجه ولا يحول بينهما حائل .. فالسجن مكان آمن .. وحراسه فى خدمة الملك .. والملك فى خدمة أمها .. وأمها فى خدمتها وخدمة أغراضها ..
ودخلت سالومى إلى يحيي فى سجنه فأخذتها روعته وجماله وشبابه .. وكان رقيقا كالنسمة ساحر الكلمات حلو الأبتسامة يأخذ بمجامع القلوب ..
وأخذ بقلبها وعقلها وإشتعلت الرغبة المحمومة داخلها شوقا إليه ..
فراودته عن نفسه مقابل اطلاق سراحه ومنحه ما يشتهيه من مال وهدايا وعقارات ومناصب ذات مستوى رفيع فى الدولة . لكنه قال لها فى هدوء المؤمن وثقته :
ما لهذا خلقت .. وما رغبت فى الدنيا من شئ .. سوى ما يكفى ليقيم أود حياتى وشربة ماء تطفئ ظمأى .
قالت له هائمة :
إنك تستحق أكثر من ذلك بكثير فليس فى بنى إسرائيل من يدانيك إنك شبابا ورجولة وحيوية وهمة ..
قال يحيى على استحياء :

- كل شئ زائل .. ولن يبقى غير العمل الصالح وما تقدمينه للناس من خير .. الجمال يذوى ويذهب .. والجلد يبلى .. والشعر يسقط والعيون يأكلها الدود .. واللحم يبلى ويتساقط وينتن .. ولا يبقى من جمال الإنسان إلا أعماله وصفاته .

قالت وعينيها ترقبه وقد مدت يديها إليه تتحسه وكأنها تتأكد من كونه حقيقة لا خيالا .. فأجفل منها وابتعد عنها .. واستعاذ بالله من حركاتها.

- ما لهذا خلق هذا الجسد الجميل والوجه الصبوح .. مثل هذا الصبا والجمال خلق للحب والمتعة والحياة .

ابتعد عنها مستعيذا بالله من الشيطان الرحيم .. ثم اقترب منها بعد أن خامره الشك في إمكان دعوتها إلى عبادة الله وهدايتها إلى الطريق السليم .. وتخليصها من شهوة الشيطان وسيطرته عليها .

قال يرجو إيمانها :

- عند الله أشياء كثيرة أجمل من كل هذا .. لو فعلتها لنلت أكثر مما تصورت .

اخذتها كلماته .. وتضخمت فى أعماقها أمنياتها فلعله يريد بها أكثر مما تحلم به معه ..

قالت تفصح عن رغبتها المشتعلة .

- هل عند الله ما هو أجمل من القبلات والعناق وامتزاج الأجساد وتلاقى الرغبات .

أجابها وقد ازداد أمله في دخولها إلى طاعة الله .

بل اكثر من ذلك بكثير ..

- وأنا مؤمنه بالله معك .. بشرط أن نبدأ بالمحسوسات حتى ننتهى بالمعنويات.

استعاذ بالله منها .. وعرف إنه لا سبيل إلى هدايتها .. لكنه لم ييأس .. كل الأنبياء لاقوا من العذاب والهوان مالا يمكن أن يوصف أو يحتمله بشر .. لكن الله عز وجل كان يثبت قلوب الذين آمنوا فى مواجهة الشر فقال مجددا الأمل :

- عودى إلى غدا أو بعد فأنا أحب أن القاك واجلس معك وأحـــاورك .. وخذى هذه الكلمات الخمس فهى من الله وتفقهى فيها وأفهميها وعيها جيدا حتى نتناقش فيها عند لقائنا القادم .

استمعت إلى كلماته وحفظتها فهى وسيلتها إلى لقائه من جديد ..

وتكررت اللقاءات .. هى لكى تأنس بصحبته وتتأمل جماله على أمـل أن يلين ويخضع لها كما خضع من قبله كل شباب إسرائيل وكبار القـوم .. حتى الملك لاحظت نظراته الشرهة إليها حتى كاد ان يرتمى تحـــت قدميها لولا أن أمها قدمت فجأة إلى المكان فتملك نفسه .. ولكـــن إلـــى حين كما تخبرها غريزة الأنثى المشتعلة داخلها ..

كل الناس تهفوا إليها .. لكن هذا الشاب لا يفعل ذلك ولا يـــهتم بـــها وبجمالها وسحرها ودلالها .. تجلس أمامه وبين يديه فلا يتحـــرك منـــه جزء من جسمه ولا يجذبه إليها دلالها وتمايلها ورقصاتها المثيرة والتى كانت تتعمد القيام بها أمامه فى السجن بسبب ودون سبب .. اللـــــهم إلا استمالته واحياء الرغبة داخله.

لكنه كان ينظر إليها مستنكرا لما تفعل .. غير عابئ بما تقوم به مـــن حركات .. وكأنها لا شئ .. نكره .. لاقيمة لها ولا جمال يطمع فيـــه كل شباب إسرائيل ..

وكلما إزداد صدالها .. إزدادات شوقا إليه ..

ومضت قرابة عشرة أشهر وهو فى داخل سجنه .. وزيارة ســـالومى له لاتنقطع .. ولم يفقد الأمل مع كل زيارة أن ينجح فى اخراجها ممـــا هى فيه وأن تتوب إلى الله وتؤمن بالله الواحد الأحد وتـــؤدى الصـــلاة والزكاة والصيام.

ولكنها لم تستطع أن تحقق رغبة أمها فى أن يعلن يحيى موافقته على زواجها من الملك .. بل إزاداد إصرار على موافقة ورفضه وهو يقول:

- زواج الملك من هيروديا باطل .. قتل زوجها وأراد أن يتزوجها .. فهو زواج باطل باطل ..

وانتشر الخبر بين الناس .. وأصبح رفض يحيي لزواج هيروديس من ارملة شقيقة حديث بنى إسرائيل ..

واستشاطت هيروديا غيظا بعد أن فضحها يحيى وأصبحت مضغة على كل لسان في المدينة .

وطلبت من إبنتها سالومى وقف المهمة .. وكانت هى قد اتخذت قرار بذلك بعد أن يئست من إستمالة يحيي إليها بعد أن أصبحت مجنونه بهواه وحبه ..

لكنه غير مكترث بها .. مشغول عنها بعبادة ربه ..

فقررت هي الأخرى الانتقام منه .

ووضعت أمها خطة لتنفذها سالومى خلال الحفل الذى سيقيمه الملك بمناسبة عيد ميلاده .

أقام الملك حفلا كبيرا فى يوم العيد .. دعى إليه كبار قومه .. وأقيمت الزينات فى طول البلاد وعرضها .. واستمرت فرق الموسيقى تعزف فى الشوارع والميادين العامة لتبث البهجة والسرور بين الناس .

حتى كان حفل عيد ميلاده جلس الملك بين حاشيته وأصدقائه يحتس الخمر حتى أخذت برأسه .. وعيناه تتابعان تحركات سالومى وأمها هيروديا .. وحلقات الرقص تنتشر من حوله وهو يتراقص ويتمايل طربا وسعادة .. وأن كان الأحساس بالقهر من يحيي يملأ جنبات صدره ولا يستطيع إزاحته عنه .. وهو لن يزول إلا بموافقة يحيي على زواجة من هيروديا .. فتمايل كاطير الذبيح يلهو ويلاطف الفتيات والراقصات والمدعوات وينثر بينهن البهجة والسرور .. وكل منهن تتمنى أن يميل إليها وعليها عسى أن يصبح رجلها وحبيبها .. وأن تصبح الملكة ..

لكن الملك كان فى حلم آخر ..

وأدركت هيروديا بخبرتها أن هذه هى اللحظة المناسبة فأومأت إلى إبنتها سالومى إيماء ذات معنى فإختفت لحظات .. ثم عادت حافيه راقصة ليس عليها إلا قليل من ثياب سترت به عورتها ..

وبدأت فى الرقص على أنغام الموسيقى .. وتحلق الجمع من حولها وعيون الرجال تلتهم ما ظهر منها .. وعيون النساء تمتلئ غيرة وحقدا وحسدا لها ..

واقتربت من الملك .. وسحبته من يده إلى داخل حلبة الرقص تعانقه حتى إشتعل رأسه بالرغبة المحمومة وتمايل معها طربا وسعادة ..

وأدركت أنها وصلت إلى اللحظة المناسبة وهمست فى أذنه : ألا تريد شيئا ؟ ..

قال طربا :

- أريدك أنت يا سالومى .

ضحكت متمايلة مثيرة لرغبته وكأنها موافقة .. ثم اقتربت منه قائلة :

- بشرط .

- إشرطى كما تريدين .. فقط أؤمرى وعلى التنفيذ .

- أنه شرط صعب ..

- لا شئ صعب لك .. كل ما تريدينه سهل وميسور ..
قالت بعد أن قبلت أذنيه واقتربت من شفتيه وأيقنت أنه أصبح طوع يديها :
- أريد يحيي ..
اجابها حائرا :
- هو فى سجنه ..
قالت آمره :
- أعرف ذلك .. لكنى أريد رأسه مقابل ليلة معك .. بل ليال كثيرة طويلة ..
أيقظه الطلب الغريب من لذة السكرة والنشوة .. فأفاق قليلا وعمل فكره .. ثم قال لها :
- لكن ذلك سيجر علينا وعلى بنى إسرائيل عذاب كبير ..
الناس هنا كلها تحبه وتستمع إليه وإلى كلماته .. وهو يقول إنه نبى الله فابتعدى عن هذا الطريق .. واطلبى شيئا آخر لا يحيل حياتى وحياتك إلى جحيم .
لكنها أصرت على طلبها .. وتمايلت معه وزادته كأسا من الخمر .
ووافق على قتل يحيي .
فأومأت إلى أمها بالموافقة . فاسرعت إلى السياف تأخذه إلى السجن فقطع رأس يحيي ووضعها فى طشت واقبل بها إلى الملك ..
واستمع الملك إلى صوت يحيي ورأى لسانه وهو يعلن :
- لا تحل لك هيروديا .. لا تحل لك هيروديا ..
فإشتعلت هيروديا غضبا وغيظا وأمسكت بإبرة تغز بها لسان رأس يحيي .. عسى أن يقف عن الكلام أمام الجمع فى هذا الحفل الكبير ..
لكن اللسان لم يتوقف .. وظل يردد بصوت قوى :
- لا تحل لك هيروديا .. لا تحل لك .
وإبتلعت الأرض سالومى .. وأخذت النساء والجوارى يصرخن ويولولن ويلطمن وجوههن وهن يرينها تغوص فى أعماق الأرض .. وطلبت أمها من السياف أن يقطع رأس إبنتها حتى يرحمها من هذا

العذاب وهذه الميته الفظيعة .. ففعل وتطايرت رأسها على الأرض بين أقدام المدعويين ..

وقال الرواة إن دم يحيي لم يزل يفور حتى قدم بخنتصر إلى فلسطين وقتل عليه خمسة وسبعين ألفا . ووقف عنده أرميا عليه السلام وقال :

– أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن . فرفع السيف وهرب من هرب من بنى إسرائيل وخربت الأرض .

ومازالت قصة بنى الله يحيي وسالومى تروى على مر الأيام وأتخذ منها المفكرون فى الغرب أساسا لقصصهم ومسرحياتهم ومؤلفاتهم .. وقد أدخلوا عليها كثيرا من التعديل والتبديل بما يناسب وما يريدون .

ومهما كان حجم التغيير والتبديل إلا أن الحقيقة مازالت قائمة وهى أن أحد أنبياء الله قد قتل على يد بنى إسرائيل وأن الإرادة القوية والإيمان الصادق بالله تعالى يهون فى سبيلها أى شئ .. حتى الموت .

مريم بنت عمران

ليست المكائد كلها شر بل منها ما هو فيه خير كثير ومثل ذلـــك مـــا حدث لعيسى بن مريم عليه السلام . فقد كادت له أمه كثيرا حتى نجـــا من القوم الظالمين . فكان فى كيدها خير لها ولولدها وللناس أجمعين ..

فقد كادت له يوم هربت به إلى مصر لكى ينجو من بطش هـــيردوس ملك بنى اسرائيل كما هربت أم يحيي نبى الله عليه السلام

بإبنها إلى الصحراء هروبا منه وخوفا على إبنها من القتل . فقد كـان هيردوس يبغى قتل كل طفل سوف يكون سببا فى قتلـــه وزوال ملكـــه فأمر يقتل كل طفل يولد حتى لا يكون هناك طفل ينمو ويحقـــق نبـــوءة الكهنة ويسقط عرشه بعد موته ..

وكان قد شاع بين الناس نبأ مولد يحيي لنبى الله زكريا عليهما السلام بعد طول عقم وكبر سن وضعف ووهن واشتعال الرأس شيبا ..

قال تعالى : " كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذا نادى ربه نداء خفيا قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكـــن بدعائك رب شقيا وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عـــاقرا فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام إسمه يحيي لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تلك شيئا . "

فأخذته أمه إلى الصحراء هروبا من ملك اليهود حتى لا يقتله وتركها زكريا عليه السلام مع إبنها وعاد إلى المدينة حتى لا يشك أحـــد فـــى إخفائه لأبنه بعد أن عرف الناس بمولده وعلم الملك بذلك .. وعاشا فـــى الصحراء حتى مات الملك فعادت به أمه إلى المدينة ليدعو إلى عبـــادة الله الواحد الأحد حتى قتل .

وكذلك فعلت مريم مع إبنها بعد أن شاع أمره بين الناس وتحدثوا عن معجزة مولده وما تحدث به وهو طفل لرضيع فأخذته مع ابن خالتـــها يوسف النجار وهربت به إلى مصر . فقد كانت تعلم أنه سيكون له شأن كبير وأنه سيكون رسولا من رب العالمين لهداية بنى اسرائيل بعـــد أن ضلوا الطريق وتركوا شريعة موسى وحرفوا فـــى التـــوارة وتحـــول

معظمهم إلى الكفر وعبادة الأوثان . وقال تعالى : " وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربينن . وبكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة الأنجيل . ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم آني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأمكة والأبراص واحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين. ومصدقا لمابين يدى من التوارة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بأية من ربكم فإتقوا الله وأطيعون . أن الله ربى وربكم فإعبدوه هذا صراط مستقيم . "

وكان لابد للسيدة مريم أن تمكر وتخفى أمرها بين الناس حتى تتمكن من الفرار بإنبها من ظلم اليهود وتقولهم عليها بالمنكر واتهامهم إياها بالفسق والفجور وارتكاب الفاحشة حتى حملت وولدت عيسى عليه السلام .. واتهموها مرة فى زكريا عليه السلام وطاردوه حتى هرب منهم إلى داخل الغابة .

فإنفتحت له شجرة كبيرة ودخل بها لكن الشيطان دلهم عليه من ثوبه الذى برز جزء منه من خارج الشجرة فقطعوا الشجرة نصفين بالمنشار .. ومات زكريا عليه السلام شهيدا على يد بني إسرائيل واتهموها أيضا فى ابن خالها يوسف النجار ..

فأشارت إليه .. أشارت إلى طفلها الرضيع عيسى لينطق بالحق .

يقول تعالى : " فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ماكان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويم أموت ويو م أبعث حيا . "

وانتشر في بني إسرائيل نبأ الطفل الذى تحدث رضيعا لكى يبرئ أمه مما نسب إليها من كذب وبهتان .. وأيقنت مريم أن أمره قد عرف بين بني إسرائيل وأن الخطر سوف يزحف إليها يحمل الموت إلى إبنها إن هى بقيت بين ظهرا ينهم .

فأوحى الله إليها أن تهرب بإبنها حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وفى ظلمة الليل تسللت مع ابن خالتها يوسف النجار تحمل رضيعها فى إتجاه أرض مصر حيث دخلوها بسلام آمنين .

وقد إختلف الرواة فى ذلك . وفى تفسير معنى قول الله سبحانة وتعالى : " وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين " فقال أبو إسحاق الثعلبى فى تفسيره أن عبد الله بن سلام قال إنها (دمشق) وقال أبو هريرة هى (الرملة) . وقال قتادة هى (بيت المقدس) وقال كعب هى (أقرب الأرض إلى السماء) وقال أبو زيد هى (مصر) وقال الضحاك هى (عرضة دمشق) وقال أبو العالية هى (ايليا) .

ولكن المؤرخين جميعا مجمعون على أن رحلتهم كانت إلى مصر .

هذا ما أكدته الأبحاث والآثار وما قاله الرواة وما زال متواترا حتى يومنا هذا .. فرحلة السيد المسيح وأمه مريم محفورة فى تاريخ مصر وأرضها وعقول وقلوب أبنائها .. وفى كل يوم يكتشف المزيد عن تفصيلاتها وما حدث فيها .

وأقامت السيدة مريم مع ابنها حتى بلغ إثنى عشر سنه وهى تخفى أمرها حتى لا يعرفها الناس وخاصة جواسيس وعيون بنى إسرائيل وملكهم إبتغاء قتله .. فكانت تنتقل من مكان إلى مكان حتى وصلت إلى صعيد مصر .. وعملت فى الحقول وجمع سنابل القمح وغزل الكتان . وأظهر عيسى كثيرا من الذكاء فأرسلته أمه إلى الكتاب لكى يتعلم فجعل لا يعلمه المعلم شيئا إلا بدره إليه . فعلمه أبا جاد .

فقال عيسى :

ما أبو جاد ؟

فقال المعلم :

- لا أدرى .

فقال عيسى عليه السلام :

- كيف تعلمنى ما لا تدرى .

فقال المعلم :

- إذا فعلمنى .

فقال له عيسى :

- فقم من مجلسك .

فقام فجلس عيسى فقال سلنى :

فقال المعلم :

- فما أبو جاد ؟

فقال عيسى :

الألف آلاء الله والباء بهاء الله والجيم بهجة الله وجماله فعجب المعلم من ذلك . فكان أول من فسر أبا جاد .

ويذكر إبن إسحاق الثعلبى فى كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس أن الحسين بن محمد الحسين المفسر بإسناده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن عيسى أرسلته أمه ليتعلم فقال له المعلم : قل بسم الله فقال عيسى : وما بسم الله قال المعلم : ما أدرى . قال عيسى الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته جلا وعلا . "

وكان ذكاء عيسى الطفل ثم الصبى موضع إعجاب من استمع إليه . وكانت لكلماته إعجاز ولحديثه شجون ولتفسيراته مريدون فأقبل عليه الناس يستمعون إليه وينصتون لما يقول ويعجبون بما يفعل ويؤتى بأشياء هى من عند الله تأخذهم وتسحر ألبابهم فلا يملكون إلا ان يعجبوا به وهم غير مصدقين لما يرونه ولما يشاهدونه وتلمسه أيديهم وتراه أعينهم من معجزات ومن سحر الحديث والكلام .

يقول إسحاق بن بشير : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره ، عن موسى بن وردان ، عن أبى نضره ، عن أبى سعد ، وعن مكحول عن أبى هريرة قال:

إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل . فمجد الله تمجيدا لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمسا ولا قمرا ولا جبالا ولا نهرا ولاعينا إلا ذكره فى تمجيده فقال : اللهم أنت القريب فى علوك ، المتالعى فى دنوك الرفيع على كل شئ من خلقك ، أنت الذى خلقت سبعا فى الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك . فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك . وجعلت فيهن نورا على سواد الليل وضياء من ضوء الشمس بالنهار . وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران . فتباركت اللهم فى مفطور سماواتك وفيها دحوت من أرضك . دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر فأذللتها إذلال التظاهر . فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها .

ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار . ثم أخرجت منه الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاد على ظهر الماء فأطاعت أطوادها وجلمودها .

فتباركت اللهم .. فمن بلغ بنعمته نعمتك أم من يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضى الحق وأنت خير الفاضليين . لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب . لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس . لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس . نشهد إنك لست بإله إستحدثناك . ولا رب يبيد ذكره ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك . نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوا أحد .

وخافت مريم على إبنها من ذكائه وحسن تصرفه وقوة حجته وحسن كلماته وما يظهره من معجزات . خافت أن يستدل عليه عيون ملك بنى إسرائيل فيسعون إلى قتله فتنقلت به بين ربوع مصر . لكن معجزاته لم تتوقف وإنما نمت وظهرت لكل الناس .

يقول وهب بن منبه : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر . أنزلها يوسف النجار حين ذهب بها إلى مصر . وكانت دار ذلك الدهقان تأوى إليها المساكين . فسرق للدهقان مال من خزنت فلم يتهم المساكين . فجزنت أمه مريم لمصيبة ذلك الدهقان فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها قال لها :

يا أماه أتحبين أن أدله على ماله ؟

قال : نعم يا بنى

قال لها :

- قولى له يجمع المساكين فى داره .

فقالت مريم للدهقان ذلك . فجمع له المساكين فلما إجتمعوا عمد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له :

- قم به .

- فقال الأعمى :

-أنا أضعف عن ذلك .

فقال له عيسى .

كيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام . فلما إستقل قائما هوى المقعد إلى كوة الخزانة . فقال عيسى للدهقان :

- هكذا إحتالا على مالك البارحة . لأن الأعمى إستعان بقوته والمقعد صدق والله .

فردا على الدهقان ماله كله فأخذه الدهقان ووضعه فى خزانته وقال : يا مريم خذى نصفه . فقالت : إنى لم أخلق لذلك . قال الدهقان : فإعطيه لابنك . قالت هو أعظم منى شأنا .

ومعجزة أخرى من معجزات عيسى عليه السلام يرويها لنا السدى يقول : لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسبحان فى الأرض فنزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان ملك ذلك الوقت

إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل . فمجد الله تمجيدا لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمسا ولا قمرا ولا جبالا ولا نهرا ولاعينا إلا ذكره فى تمجيده فقال : اللهم أنت القريب فى علوك ، المتعالى فى دنوك الرفيع على كل شئ من خلقك ، أنت الذى خلقت سبعا فى الهواء بكلماتك مستويات طباقا أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك . فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك . وجعلت فيهن نورا على سواد الليل وضياء من ضوء الشمس بالنهار . وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران . فتباركت اللهم فى مفطور سماواتك وفيها دحوت من أرضك . دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر فأذللتها إذلال التظاهر . فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها .

ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار . ثم أخرجت منه الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاد على ظهر الماء فأطاعت أطوادها وجلمودها .

فتباركت اللهم .. فمن بلغ بنعمته نعمتك أم من يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضى الحق وأنت خير الفاضليين . لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب . لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس . لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس . نشهد إنك لست بإله إستحدثناك . ولا رب يبيد ذكره ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك . نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوا أحد .

وخافت مريم على إبنها من ذكائه وحسن تصرفه وقوة حجته وحسن كلماته وما يظهره من معجزات . خافت أن يستدل عليه عيون ملك بنى إسرائيل فيسعون إلى قتله فتنقلت به بين ربوع مصر . لكن معجزاته لم تتوقف وإنما نمت وظهرت لكل الناس .

يقول وهب بن منبه : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر . أنزلها يوسف النجار حين ذهب بها إلى مصر . وكانت دار ذلك الدهقان تأوى إليها المساكين . فسرق للدهقان مال من خزنت فلم يتهم المساكين . فجزنت أمه مريم لمصيبة ذلك الدهقان فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها قال لها :

يا أماه أتحبين أن أدله على ماله ؟

قال : نعم يا بنى

قال لها :

- قولى له يجمع المساكين فى داره .

فقالت مريم للدهقان ذلك . فجمع له المساكين فلما إجتمعوا عمد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له :

- قم به .

- فقال الأعمى :

-أنا أضعف عن ذلك .

فقال له عيسى .

كيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام . فلما إستقل قائما هوى المقعد إلى كوة الخزانة . فقال عيسى للدهقان :

- هكذا إحتالا على مالك البارحة . لأن الأعمى إستعان بقوته والمقعد صدق والله .

فردا على الدهقان ماله كله فأخذه الدهقان ووضعه فى خزانته وقال : يا مريم خذى نصفه . فقالت : إنى لم أخلق لذلك . قال الدهقان : فإعطيه لابنك . قالت هو أعظم منى شأنا .

ومعجزة أخرى من معجزات عيسى عليه السلام يرويها لنا السدى يقول : لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسبحان فى الأرض فنزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان ملك ذلك الوقت

جبارا عنيدا . فجاء ذلك الرجل يوما مغتما حزينا فدخل منزله ومريـــم عند امرأته فقالت لها مريم :

ما شأن زوجك . أراه حزينا ؟

فقالت لها :

– لا تسأليني .

– أخبريني لعل الله يفرج كربته على يدى .

فقالت :

– إن لنا ملكا يجعل على رجل منا نوبة يطعمه ويسقيه الخمـــر هـــو وجنوده. فإن لم يفعل عاقبة . واليوم يومنا وليس عندنا سعة .

قالت مريم :

– قولي له . لا يهتم بشئ . فإنه قد أحسن إلينا واني آمـــر إبنـــى أن يدعو له فيكتفى ذلك .

وقالت مريم لعيسى . فقال لها : إن فعلت ذلك يقع شر قـــالت : فـــلا نبالي لأنه أحسن إلينا وأكرمنا .

قال عيسى : قولي له إذا إقترب ذلك فإملأ قدورك وخوابيك ماء ثـــم أعلمني .

ففعل الرجل ذلك .

فدعا عيسى فتحول ماء القدور لحما ومرقا وماء الخوابى خمرا لم ير الناس مثله قط .

فلما جاء الملك أكل . فلما شرب سأل من أين هذا الخمر أخبرنى على الحق

فقال الرجل : أخبرك . عندى غلام ما سأل الله شيئا إلا أعطاه إيـــاه وأنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك إبن بريد أن يســـتخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق إليه . فقال الملك : أن رجلا دعـــا الله حتى جعل الماء خمرا ليستجاب له حتى يحيى إبنى .

فدعا عيسى وكلمه فى ذلك . فقال عيسى : لا نفعل لأنه إن عاش وقع شر . فقال الملك : لا أبالي بعد أن أراه قال عيسى : أن أحييته تتركوني أنا وأمي نذهب حيث نشاء قال : نعم .

فدعا الله تعالى فعاش الغلام . فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح . وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما آكلنا أبوه .

فإقتتلوا . وذهب عيسى وأمه .

ويروى وهب بن منبه معجزة أخرى من معجزات عيسى قال : بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبى فوكزه برجله فقتله فألقاه بين يدى عيسى وهو ملطخ بالدم فإطلع الناس عليه فإتهموه به . فأخذوه وانطلقوا به إلى قاضى مصر . فقالوا له : هذا قتل هذا فسأله القاضى فقال عيسى : لا أدرى من قتله . وما أنا بصاحبه . فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام . فقال لهم : إئتونى بالغلام فقالوا له .. ما تريد منه ؟ . قال : أريد أن أسأله من قتله ؟ قالوا : كيف يكلمك وهو ميت ؟

فأخذوه وأتو به إلى مقتل الغلام . فأخذ عيسى فى الدعاء فأحياه الله تعالى . فقال له عيسى من قتلك ؟ قال : قتلنى فلان . فقال بنوا إسرائيل : من هذا ؟ .. فقال هذا عيسى ابن مريم . قالوا : فمن هذا الذى معه . قال قاضى بنى إسرائيل ثم مات الغلام لساعته . فرجع عيسى إلى أمه وقد تبعه خلق كثير من الناس فقالت له أمه يا إبنى ألم أنهك عن هذا فقال لها : إن الله حافظ وهو أرحم الراحمين .

وكادت مجموعة من النساء لعيسى عليه السلام حتى يمتنع عن اللعب مع أطفالهن خوفا منه وشفقة على أولادهن بعد أن أخبروهن بما يفعله عيسى معهم .

فهو يطلعهم على ما يختبئ فى بيوتهم وبما يأكلون وبما يدخرون .

يقول تعالى : " ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمة والأبرص واحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تتدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين . "

واتفقت النساء على الكذب عليه حتى لا يلعب مع أولادهن ويعلمهم أشياء لا يحبون لأولادهن تعليمها ولا يخبرهم بما لا يحبون لأولادهن أن يعلموه ..

لكنهن لم يكن يعلمن أنه صاحب دعوة مستجابة .

يقول السدى : كان عيسى عليه السلام إذا كان في الكتاب يخبر الصبيان بما يصنع أباءهم ويقول للغلام إنطلق فقد آكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا . فينطلق الصبى إلى أهله فيبكي عليهم حتى يعطوه. ذلك الشئ فيقولون له من أخبرك بهذا القول فيقول لهم عيسى . فحبسوا عنه صبيانهم وقالوا لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم لكى يلعب معهم . فقالوا له ليسوا هنا وانكروا وجودهم . فسألهم ولمن هذا الصياح في البيت فكذبوا عليه وقالوا خنازير . قال : كذلك يكونون إن شاء الله .

وتملك النسوة رعب شديد من دعوة عيسى عليه السلام على أولادهم فهم يسمعون أنه مستجاب الدعوة رغم أنه طفل صغير .. واسرعوا إلى فتح باب البيت للأطمئنان على أولادهم فإذا بهم كلهم قد تحولوا إلى خنازير ..

وسرت القصة في بنى إسرائيل مسرى النار من الهشيم وعرفوا أنه الطفل المنشود وبحثوا عنه في كل مكان لكن أمه كانت قد تمكنت من إخفائه بعد أن علمت بما حدث .

وكادت مجموعة أخرى مؤمنة لعيسى بعد أن تملكها الشك وسرى فيها ضعف الإيمان وطالبت بمعجزة عينية يرونها ويأكلون منها . فطلبوا مائدة عليها كل ألوان الطعام .

يقول تعالى " إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنيين " قالوا نريد أن نأكل منها تطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وأخرنا وآية منك وأرزقنا وأنت خير الرازقين .

قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحد من العالمين . "

يقول ابن عباس : قال عيسى لبني إسرائيل صوموا ثلاثين يوما ثم إسألوا الله ما شئتم يعطيكموه . فصاموا ثلاثين يوما فلما فرغوا قالوا : يا عيسى أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا . فدعا عيسى ربه فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ووضعتها بين أيدهم .

ثم أمرهم بالآكل منها فخافوا وقالوا : لا نأكل حتى تأكل منها فقال عيسى :

- انكم الذين إبتدأتم السؤال عنها .

لكنهم أبوا أن يأكلوا قبل أن يأكل هو وتطمئن قلوبهم فأمر عيسى الفقراء والمساكين والمرضى وكان عددهم أكثر من الألف أن يأكلوا منها. فبرأ من مرضه كل من كان به مرض أو عاهة أو آفة . واكل آخرهم كما أكل أولهم.

وندم الحواريون على تشككهم وخوفهم وكانت إذا نزلت إجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها . فلبث أربعين صباحا تنزل ضحى فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفئ طارت صاعدة إلى السماء وهم ينظرون إليها حتى تغيب عنهم.

وكانت تنزل يوما كناقة ثمود فأوحى الله إلى عيسى ان إجعل مائدتي للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء واخذوا يبثون الشك فيها وقالوا :

هل ترون المائدة تنزل من السماء حقا ؟

فقال لهم عيسى غاضبا :

- هلكتم :

واوحى الله تعالى إليه أني شرطت على المكذبين شرط أن من يكفر بعدها عذبته عذابا لا أعذبه أحد من العالمين .

فقال عيسى عليه السلام : إن تعذبهم فإنهم عبادك وأن تغفر لهم فأنت العزيز الحكيم .

فمسخ منه ثلاثة وثلاثين رجلا باتوا من ليلتهم على الفراش مع نسائهم في ديارهم فأصبحوا خنازير يسعون فى الطريق والكناسات ويأكلون القاذورات . فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى بن مريم فبكوا وبكى على الممسوخين أهلهم . فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وأخذت تطوف به فجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحد بعد لآخر فيبكون ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام . فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا .

وقد روى ابن حاتم وابن جرير جميعا ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى ، حدثنا سفيان بم حبيب ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قيادة عن خلاس ، عن عمار بن ياسر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا ألا يخونوا ، ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير . "

وقال البخارى : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عمير بن هانئ ، حدثنى جناده بن أبى أميه ، عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " .

ولم يستطيع الشيطان أن يقترب من عيسى عليه السلام كما فعل مع كثير من الأنبياء والرسل . فقد عصمه الله منه وحرم على الشيطان الإقتراب منه .

يقول الأمام أحمد : حدثنا هيثم ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء عن أبيه عن ابى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان فى حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تو إلى الصبى حين يسقط كيف يصرخ ؟

قالوا : بلى يا رسول الله . قال .. ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه .

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد حفظ عيسى عليه السلام من غمل الشيطان فلم تستطع مكائد النساء وحتى الرجال أن تؤثر فيه وأن تجد إليه طريقا حتى رفعه الله إليه وسبحان الله . وهو خير حافظ .

نساء النبى

" إنهن صواحبات يوسف ، وإن كيدهن عظيم "
(محمد رسول الله)

لم يسلم بيت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكائد النساء ومقالبهن الطريفة وغير الطريفة .. ولم يشفع لهن زوجات الرسول الكريم واللاتى لابد وان يكن قدوة لكل نساء المسلمين .. وانهن أنهن كما وصفهن القرآن الكريم أمهات المؤمنين .. ولكن غلبت عليهن طبيعة المرأة واحساساتها وشعورها فأظهرن ما حاولن إخفاءه من غيره . ثم تعدى ظهور الغيرة والإعلان عنها والحديث بها إلى دور الفعل المنفذ .. أى أنهن قلن وعملن .. فجاء القول مقرونا بالعمل ومنفذا له ..

وكما يقول رجال القانون كانت هناك نية مبيته منذ مدة ثم قرنت بالتنفيذ والعمل .. فأصبحت ملزمة لمن عملت بها وملتصقة بها ومقرونة بإسمهاه .. ومن ثم إن الجزاء يكون لها .

وجاءت هذه المكائد المدبرة إفرازا ونتيجة حتميه التعدد الزوجات فى بيت الرسول الكريم وكثرة الضرائر به ومن ثم وغلبت طبيعة المرأة فى العشرة والمعاملة على طبيعتها كزوجة لنبى .. واصبح السلوك السائد بين زوجاته .. هو المعاملة الزوجية بما لها وما عليها وليس المعاملة المنشودة أو المأمولة بين زوجات نبى من إنكار للإحسسات الداخلية الطبيعية لدى المرأة أو محاولة للسيطرة عليها وترويضها حتى تصبح فى النهاية مثلا وقدوة تحتذى بها نساء المسلمين ..

وكما تقول الدكتورة بنت الشاطئ : ليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ولا هو يقتضى أن يستريح إحداهن إلى هذه المشاركة فى الزواج ولكن معناه على التحديد أن " محمدا " كان نمطا فريدا بين الرجال . تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته على أن تكون لها مع غيره مملكة تتفرد بها دون مشاركة .

ولو خيرت نساء النبى بين حياتهن المشتركة فى بيت واحد لزوج واحد وحياة أخرى منفردة مستقلة فى غير ذلك البيت لمارضيين عن حياتهن بديلا وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها .

وقد شهد البيت المحمدى من غيرتهن ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر . وان لم تر فيه

الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات . ومظهر تنافس على حب زوجهن والرغبة فى الإستئثار به والخظوة لديه ..

وما من شك أن المصطفى قد عانى من ذلك كثيرا لكنه راض نفسه على إحتماله تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون إختيار . وما تزال الإنسانية تصغى حتى اليوم وغد بعده إلى كلمته فى زوجة عائشة حين لجت بها غيرتها الجامحة : ويحها لو استطاعت لفعلت .

وكانت السيدة عائشة هى قائدة فصيلة المشاغبين داخل البيت النبوى .. تضع الخطط وتشرف على تنفيذها حتى تؤتى أكلها .. وكانت طبيعة المرأة غالبة عليها مؤثرة فى كل حركاتها وسكناتها .. حتى مع السيدة خديجة والتى إحتلت مكانتها بعد موتها بسنوات طويله لم تسلم من لسانها وكلماتها فكانت تصفها دائما " بتلك العجوز من قريش " .

وقد ساهم فى إذكاء روح الغيرة والحسد على السيدة خديجة أن طيفها مازال قائما فى بيت النبى وقلبه إلى الأبد .. فهى زوجته الأولى .. وأول إمرأة أسلمت فى الإسلام .. ووقفت بجانبه وأعانته على شدائد الأيام ومصائب الدهر ومكائد كفار مكة للنبى .. وهى التى ساعدته بما لها وتجارتها فى بدء حياته. وعندما جاءه الوحى فى الأربعين عندما كان فى خلوته فى " غار حراء " ذهب مسرعا لا يلوى على شئ إلى بيته حيث خديجة ودفء حبها وسعة صدرها ورجاحة عقلها .. فأخبرها بالأمر وما حدث له .. فإحتوته بين يديها وضمته إلى صدرها وقد أخذها منظره .. شاحب الوجه مرتعد الأوصال .. فبثت فيه من روحها الهادئة المطمئنه .. حتى هدأ وإستقر نفسا فقالت له :

" الله يرعانا يا أبا القاسم . أبشر يا ابن عم واثبت . فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . والله لا يخذيك أبدا . إنك لتصل الرحم . وتصدق الحديث . وتحمل الكل .. وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الحق . "

ومازالت به تهدهده وتضمه وتبعث فى نفسه الطمأنينة حتى أخذته سنه من النوم .. فتركته وإنطلقت إلى بيت ابن عمها ورقه بن نوفل

تخبره بأمر محمد وما كان عليه هذا اليوم وتلتمس منه الإجابة والحكمـة والعظة ..

فإذا بالرجل يخبرها بالكثير .. أكثر ممـا وعـت وقـدرت وتمنـت وحملتها الأماني والأفكار إليه وهي في طريقها من بيتها إلى بيته .

قال لها ورقة في حماس عجيب أخذ بكل أنفاسه وكلماته :

-قدوس . قدوس . والذي نفسي ورقه بيده لئن كنـت صدقتنـي يـا خديجة . لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى . وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت .

- حملت الخبر السعيد بين جنباتها وإنطلقت به عائدة إلى بيتها وحيث رسول الله مازال مستغرقا في نومه .. حدجته طويلا وملأت عينيها من بهائه وجماله ورجولته وشئ في نفسها يقول .. هل بدأت أيام أخـرى وإنتهت أيام الراحة ..

جلست بجواره تحتويه بكل جوارها . فإذا به ينتفض فجأة ويتصـد عرقا وتتثاقل أنفاسه ثم يتلو في بطء :

" يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجـز فإهجر ولا تمنن تستكثر . ولربك فإصبر " .

وقام من نومه فوجدها بين يديه حانية عليه فأخبرها بأن أيام الراحـة إنتهت وبدات أيام الشقاءوأن جبريل أمره أن ينذر الناس وأن يدعوهـم إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام .

فأخبرته بأمرها مع ابن عمها ورقه بن نوفل وما قاله وتنبأ به من أنه سيكون نبي هذه الأمة .. وأن عليه أن يثبت في مواجهة المحن والشدائد ومصائب الأيام وأن الله لن يخذيه أبدا ..

وأيقنت خديجة بما حدثته به نفسها عند عودتها من عند ورقة بأن أيام الراحة قد ذهبت وقدمت أيام الشقاء والتي لا يعلمها سوى الله عز وجل فإحتواته بين يديها وضمته إلى صدرها وهي تقول له :

- أنا أستجيب لك يا محمد .. وإني لمسلمة لك مصدقة لرسـالتك .. مؤمنه بربك

فباركها الرسول ورضى عنها .. فكانت أول من أسلم مـــن النســاء وكان هذا مبعث حسد السيدة عائشة لها ..

فهى أولى زوجاته .. وأول من أسلم من النساء .. وأم أولاده القاســم وعبد الله وزينب ورقيه و أم كلثوم وفاطمة ..

وأما هى فمنذ تزوجت التى لم تنجب .. حتى البنون تميزت به خديجة عنها وانفردت به عن كل زوجات الرسول عدا مارية القبطية .. فكــأن الله أراد أن يميزها عن كل نسائه مجتمعة بالجمال والمال والبنون وأول من تسلم وأول من تقف إلى جانب الرسول وتشد من أزره وتأخذه بيــده وتمسح عنه عرقه ودمه إذا نزف من جراء طوبة أو حجر ألقى به عليه كافرا من كفار مكة .. وتشهد معه أصعب أيام حياة المســلمين عندمــا قضى على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لاثنين بشــعب أبى طالب بعد أن أعلنت عليهم قريش حربا لا ترحم وسجلت مقاطعتــها له وللمسلمين فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة .. لحظتها لم تـــتردد خديجة فى الإعلان عن مصاحبتها لرسول الله والبقاء معه ومســـاعدته مهما كلفها الأمر من عذاب وجوع ومخاوف مجهولة .. تركت كل مالها وذهبها ودارها وتبعت رجلها وزوجها ونبيها إلى حيـــث شـــعب أبـــى طالب.

ومكثت معه ثلاث سنوات . نعم الزوجة الوفية . لم تشكو يوما مـــن جوع أو تعب أو سغب . ولم تظهر على وجهها علامات التذمر .. بــل كان الرضاء والصفاء وحب رسول الله وحب كل من يحبـــه كــل مــا يميزها ويبرز من حركاتها وتصرفاتها .. ورغم أنها نبت بيـــت غنـــى يفيض كرما ويغدق المال على كل من حوله وعاشت به سنوات عمرها الطويلة ترفل فى السعادة والهدوء وراحة البال وتجد العشرات يسارعن إلى خدمتها وإحضار كل ما تريد إلا أن ذلك لم يؤثر عليها .. بل كانت تصرفاتها وكأنها لم تعرف ذلك من قبل .. وكأنها نبت شقاء وكفاح حتى لفت ذلك نظر رسول الله .. فدعا لها كثيرا .. فهى لم تبخل بمالها وكــل ما تملك من أجل الدعوة من قبل ذلك وهى الآن تبـــذل كــل صحتـــها وعافيتها من أجل خدمته وخدمة كل المسلمين والتخفيف عنهم فى هـــذا

المنفى من هول ما يواجهونه من جوع ومرض ومشقة حتـــى إنتـــهت الأزمة .

نعم الزوجة والأم أنت يا خديجة .

قالتها عائشة وهى تتمنى أن كانت مكانها وأخذت كــل هــذا الحــب والتكريم من الله ورسوله لها ..

ولم تستطع أن تخفى هذا الحسد وهى تستمع إلى صوت هالـــة بنــت خويلد شقيقة خديجة عندما قدمت لزيارة النبى فـــى المدينـــة واســتمع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى صوتها الذى كان يشبه صوت خديجة - فى فناء بيته - فأسرع إليها باشا مرحبا ويهتف من أعماق قلبه بعد أن تذكر بها خديجة وأيامها ولياليها وما قدمته له فقال :

– اللهم هاله :

فلم تتمالك عائشة نفسها من الغيظ وقالت :

– " ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين .

هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيرا منها . "

فتغير وجه النبى عليه الصلاة والسلام وقال لها :

– " والله ما أبدلنى الله خيرا منها .. أمنت بى حيـــن كفــر النـــاس وصدقتنى إذ كذبنى الناس . وواستنى إذ حرمنى الناس . ورزقنى منــها الله الولد دون غيرها من النساء . "

فأمسكت عائشة من بعدها عن القول فى خديجة وهى تقول :

– والله لا أذكرها بعدها أبدا ..

لكن إمساكها عن القول لم يطل . فقد عادت إليها غيرتها منها وقـــالت لرسول الله يوما بعدما ضاقت من كـــثرة ذكـره بخديجـــة والتحـــدث بفضائلها:

– كأن لم يكن فى الدنيا امراة إلا خديجة .

فأجابها الرسول عليه الصلاة والسلام من فوره .

– أنها كانت وكانت .. وكان لى منها الولد .

- فصمتت .. وابتلعت حزنها وهى ترى رسول الله يدافع عنها كــل هذا الدفاع الذى تتمناه كل امرأة من زوجها وحبيبها رغم أنه مر علــى موتها عنه سنوات طويله .

لكنها مازالت فى قلبه . تحتل السويداء منه وليس لأحد غيرها مكــان بها .

فتكتم غيظها وهمها وتبحث عن شئ جديد تتقرب به إلــى زوجــها عسى أن تصل إلى هذه المكانه الرفيعة التى وصلت إليــها خديجــة .. والتى مازالت تحتلها بقوة وثقه ولا تدع مكانــا لأحــد غيرهــا يقـف بجوارها.

وكثيرا ما كانت تقول :

" ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة . ماتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعدما ماتت . "

أو تقول :

- " ما غرت من امراة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غرت مـن خديجة. لما كنت أسمع من ذكره لها وما تزوجن إلا بعد موتها بثــلاث سنين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح شاة يقول :

- أرسلوا إلى أصدقاء خديجة .

فحدثته عائشة فى ذلك مرة فقال :

- إنى لأحب حبيبها .

وحتى فى يوم فتح مكة . لم ينسها رسول الله صلى الله علية وســلم وقد مضى على فراقها له أكثر من عشر سنوات فيقيم معســكره إلــى جوار قبرها وكأنه يشركها فى هذا الفتح العظيم والذى كلل كل جــهدهم وتبعهم وعذابهم فى مواجهة الكفار ونشر تعاليم الإسلام بالنصر الكبــير ويقيم فى قبة ضربت له هناك يشرف منها على الفتح المبين مستأنســا بروح خديجة .. متذكرا أيامه ولياليها معه وهو يطوف بعد الفتح حــول البيت العتيق وتذهب نظراته بعيدا حيث البيت الــذى ضمــهما ســويا

وجمعهما فى رحلة الحياة ثم الدعوة إلى التوحيد .. فكانت نعم الزوجة الوفية .

ومن الطريف أن المستشرق (مرجيلوت) فى كتابة حياة محمد يورخ لمحمد عليه الصلاة والسلام بكونه رسولا باليوم الذى لقى فيه خديجة ومدت له يدها تقديرا . كما يؤرخ لحادث هجرته إلى يثرب باليوم الذى خلت فيه مكة من خديجة ورقدت تحت الثرى ..

فكأنه بذلك يزيد نار الغيرة إشتعالا فى قلب عائشة لتلك المرأة التى عرفها الرسول من قبل وسبقتها إلى الزواج منه وكانت أم أولاده أيضا

وحتى المستشرق (بودلى) هو الاخر يقول عن خديجة :

إن ثقتها فى الرجل الذى تزوجته - لأنها احبته - كانت تضفى جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدبن بها اليوم واحد من كل سبعة من سكان العالم .

و يقول المستشرق (درمنجم) عن وفاة خديجة :

فقد محمد بوفاة خديجة تلك التىكانت أول من علم بأمره فصدقته .. تلك التى لم تكف أبدا عن القاء السكينه فى قبله تلك التى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات .

لكن المستشرق (مرجليوث) ذهب مذهبا ربما يرضى غيرة عائشة عندما حاول تفسير مكانة خديجة عند محمد (ص) بأنه يرجع إلى مالها. فقد كانت غنية وهو شاب فقير ومن ثم سعى إليها لكى يستفيد من مالها فيقول فى كتابه (حياة محمد رسولا) : " إن دعوة خديجة - للزواج منه - جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبى طالب حين خطب إليه إبنته أم هانئ . فرده لفقره وزوجها لذى مال . واستشعر محمد ذل الفقر ومهانته . فما كان يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء .. يداوى به جرح كرامته التى أهدرها الفقر " .

لكن الدكتوره بنت الشاطئ ترد عنها غيبتها وتدافع عنها وتسقط عنها تلك التهمة فتصف (مرجيلوث) بالكذب وأن مال خديجة لم يكن هو الذى جذب إليه محمدا وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فارق السن

وإنما جذبه إليها جمال شخصيتها ودماثة طبعها ولطف سجاياها .. وأن ما كان بينهما من فارق السن كان كافيا وحده لأن يرضى حاجته الملحة إلى عطف الأمومة التى افتقدها منذ كان طفلا فى السادسة وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق .

وهى أيضا ترد عن السيدة خديجة غبيتها مع المستشرق (موير) فى كتابة حياة محمد وتاريخ الإسلام والذى إدعى فيه أن وفاء محمد بخديجه يرجع إلى تهيبه من مركزها المالى والإجتماعى وخوفا من أن تطالبه بالطلاق . فتقول وكان على (موير) أن يفسر لنا : فيم إذن كان وفاؤه لها بعد موتها .. ؟ .. وهل كان صلى الله عليه وسلم يخاف أن تطالبه بالطلاق وهو يخاصم عائشة فيها بعد وفاتها بسنين ويأبى عليها أن تمس ذاكرها ؟ ..

لقد كانت (خديجة) ملء حياة المصطفى حية وميته وما جاوزت (عائشة) الحق حين قالت لزوجها الرسول :

– كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها .

وهل كان بإستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه .. وهل كان لأنثى غيرها أن تهئ له الجو المسعف على التأمل وأن تبذل له من نفسها فى إثار نادر ما أعده لتلقى رسالة الله .

وكأن بنت الشاطئ تدافع - عن حق - عن خديجة وترد عنها غيبتها وهى أيضا فى دفاعها المستميت والمحق هذا تشكل نار الغيرة عند عائشة وهى التى تقول عنها وكأنه لم يكن فى الدنيا امرأة سواها .. وتصفها من قبل بأنها عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقيين ..

فتقول بنت الشاطئ فى ثقة ويقيين دفاعا عنها :

كلا .. بل هى وحدها التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة .. وتكون لليتيم أما وللبطل ملهمة وللمجاهد ملاذا وسكنا . وللنبى المصطفى وزيرا .

قال ابن اسحق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيبه له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة

رضى الله عنها . إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضى الله عنها .

ومهما كانت غيرة السيدة عائشة من مآثر وحب النبى وتقديره للسيدة خديجة .. فقد كان رسو ل الله يعرف أن ذلك نابع من الدوافع الطبيعية لدى المرأة .. والتى تدفعها دفعا حتى لو كانت زوجة نبى رسول إلى فعل أشياء بدافع الغيرة ولا تخرج عن دور (التمنى) بأن تكون هى صاحبة هذا الدور .. الزوجة والحبيبة والتى عاشت أيام الدعوة وواجهت متاعب الكفار واجتازت أزماتهم وهى بجانبه ترعاه وتحنو عليه . ومن هنا كان إشفاقه عليها وحرصه مهما حدث أو قالت أن يرضيها ويرضى غرور المرأة ونوازعها بداخلها .. فهو لا يرى فى ضعف البشرية اثما لا يغتفر أو لا يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الانكار .

ولقد زادت عائشة فى غيرتها وبث مكائدها لدرجة جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يهجر زوجاته شهرا تأديبا وإصلاحا لهن ..

ومع ذلك لم يغضب منها الرسول وكان يؤكد دائما أن عائشة أحب زوجاته إليه .. وكان يقول لها .

حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى .

لكن هذا الحب لم يمنعها أبدا من أن تكون قائد فصيلة المشاغبات فى بيت النبوة

فقد خلت فى كل شئ .. وساعدها على ذلك سعة علمها وحسن تفقهها لدنيها حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

خذو نصف دنيكم عن هذه الحميراء ..

وأصبحت زوجات النبى يتشبهن بها ويجادلن الرسول ويحاورنه فى أمور بيته وحياته لدرجة جعلت رجلا مثل عمر بن الخطاب يعجب أشد العجب من ذلك ومن صبر رسول الله صلى الله عليه السلام على زوجاته والأستماع إليهن ..و كانت العرب فى الجاهلية لا تعد للنساء أمرا ولا تجعل لهم قيمة .. فإذا بزوجته تشاوره فى أمر من أمور حياتهما وتخبره برأيها وما ترى فيه .. فنهرها عمر عن ذلك ..

فقالت له :

عجبا لك يا ابن الخطاب .. ما تريد أن تراجع أنت وان إبنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان .

فغضب عمر وأخذ رداءه وانطلق صوب إبنته يسألها الخبر وهل هى حقيقة تراجع رسول الله حتى يغضب .

فقالت له :

- وإنا والله لنراجعه .

ولم يصدق عمر ما قالته إبنته .. فهي وحدها ليست التى تراجعه .. وإنما أيضا كل زوجات النبى يراجعنه ..

فذهب إلى (أم سلمه) زوجة رسول الله ليتأكد من الخبر وصدق كلام إبنته - كانت ذات قرابه له - فأيدت كلام إبنته وزادت عليه قولها:

- عجبا لك يا إبن الخطاب .. وكانت ذات قرابة له - فأيدت كلام إبنته . وزادت عليه قولها :

- عجبا لك يا ابن الخطاب .. قد دخلت فى كل شئ حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .؟

ويقول عن ذلك : فاخذتنى أخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد .

فقد كان عمر وأصحابة يرون فى سول الله النبى المرسل .. أما نساؤه فكن يرين فيه الزوج الرسول . وكان هو راض بذلك مقتنع به مقر له غير ضجر ولا كاره له . لأنه يناسب النفس البشرية وما جبلت عليه طبائع النساء التى خلقهن الله من ضلع أعوج ..

وهو الذى يحث دائما على حسن معاملتهن والترفق بهن وأن هناك فرق كبير بين حقوق الزوجه كزوجة وامرأة وصاحبة بيت لها حقوق وعليها واجبات .. ولها مثل أى امرأة وأى زوجة من مناقشة وابداء رأى فى أمور حياتها البيتيه .. وبين ذلك كله وبين حياته هو كنبى ورسول .. فلم يخلط بين الأثنين ولم يحاول أن يفرض سطوته وقوته ومكانته كنبى مرسل على زوجاته فى تصريف أمورهن العائلية أو قبر مشاعرهن الأنثوية .. وانما ترك لكل شئ مكانه وحدوده .. ولم يخلط أحدهما بالآخر ..

بل كان يستمع بحياته الزوجيه ومداعباته ومقالب زوجاته ومكـــائدهن .. ويضحك منها حتى قال عنهن ذات يوم بعد أن استمع إلى احدى هذه المكائد وضحك منها كثيرا :

" إنهن صواحبات يوسف . وإن كيدهن عظيم . "

ظل طيف خديجة يؤرق عائشة ويبعث داخلها الذكريـــات الحزينـه ويذكرها دائما بمنزلتها عند رسول الله . وأنها مهما تطاولت أو إدعــت وتفاخرت بأن الرسول تزوجها عذراء فكان الرجل الأول فى حياتــها . وأنها بنت أحب الناس إلى قلبه وأول من أسلم من الرجال .. إلا أنـــها كانت موقنه بأن لها عند الرسول منزلة لا يدانيها غيرها من نساء النبى وأن فضلها عليه لا ينكره الرسول ولا غير الرسول ممن دخل فى ديـن الله أفواجا ..

وكان عليها أن تصمت وتسكت إلى حين بعد أن رأت مـــن حديـث رسول الله عنها ما رأت وسمعت منه عنها ما سمعت حتى فاض داخلها الحزن والأسى وهى تقول فى نفسها :

إذا كان هذا حديث رسول الله عنها وهى بين يدى الرحمن ومضــت سنوات على موتها .. وكل كلمة منه تقطر حبا وحنانا وشوقا إليها وإلى أيامها ولياليها .. فكيف كان عليه الحال عندما كانت مازالت تسعى على وجه البسيطة متدفقة حيوية وهمة ونشاطا تؤنس وحدته وتقف إلى جانبه وتمدله يد المساعدة والنصيحة .. ولابد وأنه كان يحتويها بعينه وقلبــه وفؤاده وكل عواطفه ..

وشعرت بالغيرة والحسد تسرى فى أوصالها ..

فإستعاذت بالله من الشيطان الرحيم ..

وحملت لها الأيام منا فسة خطيرة تزاحمها بيت النبوة وقلب رســول الله وعواطفه وتقاسمها أيضا لياليها ..

كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب .. ذات الثامنه عشــر ربيعــا .. والحسب والنسب الرفيع .

وبدأت تستعد للمعركة الجديدة وتضع الخطط لمواجهة المستقبل ولــم تكن (سوده بنت زمعه) والتى تزوجها رسول الله من قبل عائشة تشغل بالها على الاطلاق .. فمنذ اليوم الأول لدخولها بيت النبى وسودة تعمل على راحتها .. وكانت تعلم أن رسول الله يجب عائشة فعملــت علــى إسعادها وخدمتها إرضاء لرسول الله .. حتى بعد أن قدم إلى بيت النبوة زوجات جدد فيهن حفصة بنت عمر وزينب بنت جحش وأم سلمه بنــت

أبى أميه المخزومى زاد الركب .. استمرت فى خدمتها لعائشة ولبنات رسول الله ولم تتردد لحظة واحدة فى أداء مهمتها فى سعادة ورضاء نفس طالما أن ذلك كان يرضى رسول الله .. وهذا أقصى ماكانت تسعى إليه .

ومن أجل رضاء النبى قبلت (سوده) أن تتنازل عن ليلتها عند رسول الله وحقها الطبيعي إلى عائشة .. فقد كانت تدرك أن الرسول يعدل بينهم فيما يملك أما ما لا يملك فهذا متروك أمره إلى الله .. ورأت أن الرسول كان يشفق عليها من الحرمان العاطفى ومن حقوق الزوجه وفكر أن يسرحها سراحا جميلا يحفظ عليها كرامتها .

فامسكت بيد رسول الله وتضرعت إليه أن يستبقيها . فلم تعد حريصة على الأزواج وكل ما تريده أن يبعثها الله يوم القيامة زوجة له .

ثم أرادت أن تتقرب إلى الرسول أكثر حتى يستبقيها زوجة له فقالت له :

- إبقنى يا رسول الله . وأهب ليلتي لعائشة . وإنى لا أريد ما تريد النساء . ووالله ما بى على الأزواج من حرص ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا للرسول عليه الصلاة والسلام .

فرق قلب النبى لها وهو الذى أراد أن يطلقها ليحفظ لها كرامتها كامرأة . لكنها أثرت أن تعيش باقى أيام حياتها فى بيته بعد أن أخذ الكبر منها ما أخذا كبيرا ولم تعد فى حاجة إلى ما تسعى إليه الزوجات . وبقيت فى بيت النبى . تخدم بناته وتخدم من أحبها رسول الله عائشة بنت أبى بكر رغم كثرة الوافدات من الزوجات بعد ذلك إلى بيت النبوة

ومن هنا لم يكن أمر (سوده) يشغل بال قائد فصيلة المشاغبين داخل بيت النبوة السيدة عائشة .. وكان كل ما يشغل تفكيرها حفصه بنت عمر .. الشابة الجميلة المجربة المطلقة .. بنت عمر بن الخطاب أعز الرجال فى الإسلام واحبهم إلى قلب رسول الله .

ثم شغل تفكيرها أكثر مع مقدم الشابة الجميلة (زينب بنت جحش) ثم (أم سلمه بنت أبى أميه زاد الركب) ذات الحسب والنسب والجمال والكرم . ثم (جويريه بنت الحارث) ثم اليهوديه الجميلة الساحرة

(صفيه بنت حيي) ثم (أم حبيبه) بنت أبى سفيان قـائد جيـش مكـة وكبيرها .. ثم جاءت فتاة مصر الجميلة (ماريه) بخفة دمها وروحـها وحلو حديثها ثم بإعطائها لمحمد إبنه ابراهيم وهى التى لم يستطي طوال كل أعوام حياتها ان تعطيه شيئا .. ثم ريحانه بنت عمرو ذات الجمـال والكمال . حسناء بنى قريظه وإن كان الرسول لم يتزوج بـها .. ثـم آخرهن التقية الورعة ميمونه بنت الحارث .

ورأيت عائشة بذكائها الوقاد أنه لا قبل لها بكل هؤلاء وانه لابد لـها وأن تختار من تحب لتكون إلى جانبها إضافة إلى (سوده) .. واستقر رأيها على حفصه بنت عمر .. فهى شابة مثلها بنت أعز الناس وأحبهم إلى قلب رسول الله كما هو الحال مع أبيها .. وهى من بيت عز ونسب وتاريخ طويل .. ثم أنها تقاربها فى السن وان الفرق بينهما سنوات .. صحيح أن حفصة سبق لها الزواج من الصحابى الجليل (خنيس بـن حذافه بن قيس بن عدى السهمي القرشي) الذى كان أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة فرارا بدينه من بطش كفار قريش .. ثم هاجر إلى المدينة وشهد معركة أحد وأبلى فيها بلاء حسنا واصيـب فيـها وظـل حرجه يؤرقه ويؤثر عليه حتى مات به .. وترك من ورائـه زوجتـه حفصه ذات الثمانية عشر ربيعا ..

وتزوجها النبى اكراما وتقديرا لصديقة عمر بن الخطاب .

وبذلك تكونت فصيلة المشاغبين داخل بيت النبـوة بقيـادة عائشـة وعضوية سوده وحفصه فى مواجهة القادمات الجدد وكان عذرها فيمـا فعلت حبها لرسول الله .. وألا ترى أحد أبدا ومهما كان يشاركها هـذا الحب أو حتى يجذب إنتباه النبى إليه أو يحاول مشاركتها فيه ..

غلبت عليها طبيعة الأنثى والزوجة على حقيقة أنها واحدة من نسـاء النبى لها ما لهن وعليها ما عليهن دون زيادة أو نقصان .. الكل سـواء .. هكذا شريعة الله .. والرسول يطبق شرع الله بما يرضى الله لكن قلبه دائما مع عائشة ولم يستطع أن يفعل له شيئا .. فالأمر لم يكن بيده .

وبدأت أولى المشاورات بين عائشة وحفصة فى مواجهة خطر جمـال وحلاوة وطلاوة القادمة الجديدة (أم سلمه) .. فهى مع جمالها بنت أحد

أبى أميه المخزومى زاد الركب .. استمرت فى خدمتها لعائشة ولبنات رسول الله ولم تتردد لحظة واحدة فى أداء مهمتها فى سعادة ورضاء نفس طالما أن ذلك كان يرضى رسول الله .. وهذا أقصى ماكانت تسعى إليه .

ومن أجل رضاء النبى قبلت (سوده) أن تتنازل عن ليلتها عند رسول الله وحقها الطبيعى إلى عائشة .. فقد كانت تدرك أن الرسول يعدل بينهم فيما يملك أما ما لا يملك فهذا متروك أمره إلى الله .. ورأت أن الرسول كان يشفق عليها من الحرمان العاطفى ومن حقوق الزوجه وفكر أن يسرحها سراحا جميلا يحفظ عليها كرامتها .

فامسكت بيد رسول الله وتضرعت إليه أن يستبقيها . فلم تعد حريصة على الأزواج وكل ما تريده أن يبعثها الله يوم القيامة زوجة له .

ثم أرادت أن تتقرب إلى الرسول أكثر حتى يستبقيها زوجة له فقالت له :

- إبقنى يا رسول الله . وأهب ليلتي لعائشة . وإني لا أريد ما تريد النساء . ووالله ما بى على الأزواج من حرص ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا للرسول عليه الصلاة والسلام .

فرق قلب النبى لها وهو الذى أراد أن يطلقها ليحفظ لها كرامتها كامرأة . لكنها أثرت أن تعيش باقى أيام حياتها فى بيته بعد أن أخذ الكبر منها ما أخذا كبيرا ولم تعد فى حاجة إلى ما تسعى إليه الزوجات . وبقيت فى بيت النبى . تخدم بناته وتخدم من أحبها رسول الله عائشة بنت أبى بكر رغم كثرة الوافدات من الزوجات بعد ذلك إلى بيت النبوة

ومن هنا لم يكن أمر (سوده) يشغل بال قائد فصيلة المشاغبين داخل بيت النبوة السيدة عائشة .. وكان كل ما يشغل تفكيرها حفصه بنت عمر .. الشابة الجميلة المجربة المطلقة .. بنت عمر بن الخطاب أعز الرجال فى الإسلام واحبهم إلى قلب رسول الله .

ثم شغل تفكيرها أكثر مع مقدم الشابة الجميلة (زينب بنت جحش) ثم (أم سلمه بنت أبى أميه زاد الركب) ذات الحسب والنسب والجمال والكرم . ثم (جويريه بنت الحارث) ثم اليهوديه الجميلة الساحرة

(صفيه بنت حيي) ثم (أم حبيبه) بنت أبى سفيان قـائد جيـش مكـة وكبيرها .. ثم جاءت فتاة مصر الجميلة (ماريه) بخفة دمها وروحـها وحلو حديثها ثم بإعطائها لمحمد إبنه ابراهيم وهى التى لم يستطي طوال كل أعوام حياتها ان تعطيه شيئا .. ثم ريحانه بنت عمرو ذات الجمـال والكمال . حسناء بنى قريظه وإن كان الرسول لم يتزوج بـها .. ثـم آخرهن التقية الورعة ميمونه بنت الحارث .

ورأيت عائشة بذكائها الوقاد أنه لا قبل لها بكل هؤلاء وانه لابد لـها وأن تختار من تحب لتكون إلى جانبها إضافة إلى (سوده) .. واسـتقر رأيها على حفصه بنت عمر .. فهى شابة مثلها بنت أعز الناس وأحبهم إلى قلب رسول الله كما هو الحال مع أبيها .. وهى من بيت عز ونسب وتاريخ طويل .. ثم أنها تقاربها فى السن وان الفرق بينهما سـنوات .. صحيح أن حفصة سبق لها الزواج من الصحابى الجليل (خنيـس بـن حذافه بن قيس بن عدى السهمى القرشى) الذى كان أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة فرارا بدينه من بطش كفار قريش .. ثم هاجر إلى المدينة وشهد معركة أحد وأبلى فيها بلاء حسنا واصيـب فيـها وظـل حرجه يؤرقه ويؤثر عليه حتى مات به .. وترك من ورائـه زوجتـه حفصه ذات الثمانية عشر ربيعا ..

وتزوجها النبى اكراما وتقديرا لصديقة عمر بن الخطاب .

وبذلك تكونت فصيلة المشاغبين داخل بيت النبـوة بقيـادة عائشـة وعضوية سوده وحفصه فى مواجهة القادمات الجدد وكان عذرها فيمـا فعلت حبها لرسول الله .. وألا ترى أحد أبدا ومهما كان يشاركها هـذا الحب أو حتى يجذب إنتباه النبى إليه أو يحاول مشاركتها فيه ..

غلبت عليها طبيعة الأنثى والزوجة على حقيقة أنها واحدة من نسـاء النبى لها ما لهن وعليها ما عليهن دون زيادة أو نقصان .. الكل سـواء .. هكذا شريعة الله .. والرسول يطبق شرع الله بما يرضى الله لكن قلبه دائما مع عائشة ولم يستطع أن يفعل له شيئا .. فالأمر لم يكن بيده .

وبدأت أولى المشاورات بين عائشة وحفصة فى مواجهة خطر جمـال وحلاوة وطلاوة القادمة الجديدة (أم سلمه) .. فهى مع جمالها بنت أحد

أقطاب قريش وأشهرهم كرما .. وقد لقب والدها بلقب (زاد الركـب) لأن أحدا لم يكن يرافقه السفر ويحمل معه زاده .. أو يسمح له بذلك .. فقد كان يحمل معه ما يكفيه ويكفي كل الركب من زاد ..

وكانت أمها عاتكة بنت عامر بن ربيعه مالك بن جذيمه الكنانيه من بني فراس وجدها كان جذيمه بن علقه . وزوجها الذي مات عنها كان أبو سلمه بن عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم الصحابي ذو الهجرتين ابن عمة رسول الله .

وسبق رسول الله في طلب الزواج منها أبا بكر وعمر بن الخطاب لكنها ردتهما في رفق ولين ..

وتقدم إليها النبي يخطبها .. فارسلت إليه من تعتذر وتقول :

أنها غيرى . مسنه . ذات عيال .

فأجابها الرسول عليه الصلاة والسلام :

أما أنك مسنه . فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله .

وتزوجها رسول الله .

وبدأت عائشة وحفصة تشاركهما عن بعد (سوده) في وضع خطة لإستقبال الضيف الجديد .. وكانت شهرتها وجمالها قد سبقاها إلى بيت النبي .. لكن حفصه كانت أكثر تماسكا وبعد نظر ومحاولة لبحث الأمر بما يستحق .. وقد رأت أن أمر (أم سلمة) لا يستحق كل هذا التفكير وهذه الغيرة ولخصت رأيها في كلمة واحدة إلى عائشة :

قالت :

– أنها عجوز .. كبيرة في السن رغم جمالها .. وسوف تذهب الأيام ما بقي منه .. فاطمئني ..

لكن عائشة لم تطمئن ويهدأ لها بال .. فقد حزنت حزنا شديدا لما ذكرت لها جمالها . فتلطفت حتى رأتها فإذا جمالها أضعاف ما وصفت به ..

ورغم أن حفصة حاولت أن تبث فيها الطمأنينة .. لكنها مع ذلك كانت غيرى منها .. ثم توقف الأمر عند ذلك .

وبدأت فصيلة المشاغبين فى بيت النبوة عملها من جديد مع إعـــلان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زواجه من بنت عمته (زينب بنـت جحش) بعد عتاب الوحى له فيها .. لدرجة أن عائشة لم تســـتطيع أن تمسك غضبها أو تخفيه وهى تقول لرسول الله :

" ما أرى ربك الايسارع فى هواك " .

وبدأت مع حفصة تراقب الموقف لتحدد من أين تبدأ المعركة ولاحظتا أن رسول الله يطيل البقاء عندها .. وهذا يعنى أن هناك مودة ومحبة .. وهذا ما لا يريدانه .. وخاصة عائشة ..

فقررنا أمرا وأشتركتا معهما سودة ..

إتفقن أنه إذا دخل الرسول على أيهن إثر إنصرافه من عند زينــب أن تقول له:

- أكلت مغافير ؟ .. (وهى ثمرة حلوة كريهة الرائحة وكان رســول الله لا يطيق رائحتها الكريهة) .

- وجاء الرسول الكريم عائشة .. فقالت :

إننى أشم رائحة مغافير ..:أأكلت مغافير ؟

وقالت حفصه نفس ما قالت عائشة ..

وسألته (سوده) ذات السؤال .. فنفى ذلك

لكنها سألته :

فما هذه الريح ؟

قال :

- سقتنى زينب شربه من عسل .

فقالت وكأنها خبيرة بمراعى الباديه :

رعت نحله العرفط . (العرفط شجر المغافير)

فحرم النبى على نفسه شرب العسل عند زينب من ذلك اليوم وضعفت (سوده) وهى ترى رسول الله وقد حرم على نفسه ذلك لعلمها أنه يحبه .. وكادت أن تخبره لو لا نظرت إليها عائشة نظرة زاجرة .. فــابتلعت كلمتها وآثرت السلامة والصمت وهى تقول لصاحبتيها :

- سبحان الله والله لقد حرمناه . "

وهدأت المعركة قليلا .. لكنها ما لبثت أن إشتعلت من جديد مع قادمة إلى بيت النبوة تسبقها شهرتها فى الجمال والحسن والحسب والنسب .

وكانت هى (اسماء بنت النعمان) فقد أحست مع قدومها إلى بيت الرسول خطر كبير قد يستفحل فلا تستطيع مواجهة مستقبلا . فقررت أن تبدأ بالمواجه من المنبت حتى تقطع كل جذورها فلا تورق ولا يكن لها ثمر ولا إستمرار .

وقررت أن تتخلص منها قبل أن يتم الزواج .

وبدأت فصيلة المشاغبين تبحث عن حل حتى إهتدين إليه .. وفى ليلة العرس أقبلن على العروس مرحبات فرحات يبعثن من حولها السرور ويتقربن إليها فى موده زائدة حتى أنست إليهن ووثقت فيهن واستمعت إلى نصيحتيهن .

وكانت النصيحة أنه من أجل إسعاد النبى وارضائه وإدخال السعادة والطمأنينة إلى قلبه فى ليلة عرسه أن تستعيذ بالله لحظة دخوله عليها .

واستمعت المسكينة إلى نصحتيهن وهى واثقة من أن ما يقلنه يقربها من رسول الله ويثبت أقدامها فى بيته .

وما كادت ترى رسول الله مقبلا عليها حتى إستعاذت بالله .

فصرف وجهه عنها وقال :

- " لقد عذت بمعاذ " .

وتركها وانصرف سريعا وأمر أن تلحق بأهلها .

وبكت كثيرا بعد أن عرفت حقيقة النصيحة الخبيثة من عائشة وحفصة .. وسعت إلى رسول الله نادمة ترجوا العودة إليه .. وسعى أبوها وأهلها و عشيرتها عند المصطفىعله يعفو عنها بعد أن قصوا عليه قصتها وحكايتها مع عائشة وحفصه .

فابتسم من الحكاية وهو يقول :

" إنهن صواحبات يوسف وأن كيدهن عظيم " .

لكنه مع ذلك بقى عند كلمته ولم يعدها إلى بيته ولم يمسك تلك التى عاذت بمعاذ ..

وهكذا نجحت فصيلة المشاغبين فى التخلص من منافسة خطيرة لـــو استمرت ربما حققت لهن متاعب كثيرة . ومع قدوم ماريـــة المصريـــة بدأت تحوم حولها عائشة وحفصه .. لكن امرها لم يعـــن إحداهـــن .. فكانت جارية وأن كانت هيفاء فارعة الطول مرسلة الشعر جميلة الوجه والقسمات خفيفة الظل .. تأثر القلب كل من يتحدث إليها ويشعر معـــها بالود والحب والأمان والأطمئنان ..

لكن كل ذلك لم يكن يهم إحداهن ..

حتى جاء الخبر السعيد .. وحملت ماريه فى إبراهيـــم فإستشـــاطت عائشة غيظا أن تحمل هذه الجارية من رسول الله وهى مازالت عقيم .. تتمنى الولد وأن تنجب له البنون كما فعلت خديجة من قبـــل ثـــم هـــذه الجارية ..

لكن الأمر لم يكن بيدها ..

وبدأت فصيلة المشاغبين عملها من جديد .. فالأمر يهم عائشة ويـــهم حفصة أيضا فهى مثلها لم تحمل ولم تلد ولن يكون لها ذرية من رســـول الله .

وبدأت عملية الترصد لها والمراقبة والمتابعة ومعرفة من أين توجـــد الثغرة .. ومن أين يبدأ الهجوم .

حتى كان يوم جاءت فيه (ماريه) تلتمس لقاء المصطفى فخلا بـــها فى بيت حفصة وكانت فى زيارة لأهلها وعند عودتها علمت بـــالأمر .. فإنتظرت حتى خرجت ماريه ودخلت إلـــى زوجـــها حزينـــة مكـــدودة مهمومه .. حتى أشفق النبى عليها .. ولم يهدأ حتى حـــرم المصطفـــى (ماريه) على نفسه .. ثم طلب من حفصة كتمان الأمر .

لكنها لم تحفظ العهد وسارعت بإبلاغ عائشة وباقى زوجـــات النبـــى فتجمعن بعد تفرق وكانت كلمتهم :

" صبرنا على إيثار الرسول لإبنه أبى بكر وما بقى إلا تلـــك الأمـــة القبطية فأى هوان .. "

وثارت نساء النبى على ما جرى وكل منهن حاسدة ماريه حملها مـــن رسول الله وأن الله إختصها بالولد دونهن ..

وإزدادت الثورة إشتعالا وأطلت الفتن كقطع الليل تحجب السعادة وتبدد الهدوء وتشعل النار كلما خبت .. حتى تحول بيت النبوة إلى جحيم لا يطاق فآثر المصطفى أن يبتعد عن هذا العبث الأنثوى فاعتذلهن حتى يثبن إلى رشدهن وأعلن إنقطاعه عنهن .

وندمت الثائرات على فعلتهن بعد أن سرت شائعة بأن الرسول سيطلق زوجاته .. وتحدث بها المسلمون فى كل مكان واعتزلهن النبى داخل خزانه قديمة ذات مشربة وكان يصعد إليها مستندا إلى جذع نجلة ويلقى بجسده المتعب عليها إلتماسا للراحة بعد جهاد يوم طويل يحرسه غلامه (رباح) متخذا من عتبتها مجلسا له لحراسة المصطفى ..

ورق قلب عائشة لزوجها وحبيبها ونبى الله المختار . ونسيت فعلتها واشتراكها فى ثورة زوجات النبى ومساهمتها فى إنكائها حسدا لمارية و ما أعطاها الله من ولد لم ترزق هى به وكانت ومازالت تتمنى حدوثه ..

وتصورت المصطفى وهو جالس فى المكان الصغير لا يجد من يساعده أو يمد له يد العون بما يحب من ألوان الطعام فأخذها حزن عميق وبكت حتى إحمرت عيناها .. خاصة بعد أن طال خصام رسول الله لهن .. ومضى شهر دون أن يحادثهن وكأنه يؤكد الأشاعة التى سرت بين المسلمين من أن الرسول عازم على تطليق زوجاته ..

ولم يجرأ أحد من صحابة الرسول أو المسلمين أن يفاتحة فى الأمر .

ودخل عمر بن الخطاب على إبنته حفصة فوجدها تبكى فقال لها :

– لعل رسول الله قد طلقك ؟ إنه إن كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلى . فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا .

وخرج إلى المسجد ورأى المسليمن مطرقين وهم يقولون :

طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه .

وشعر عمر بأن إبنته هى سبب هذا البلاء فقصد الخزانة التى يقيم فيها رسول الله . ورباح قائم على عتبتها .. فإستأذن فى الدخول إلى رسول الله ..

وكرر الأمر أكثر من مرة دون أن يجيبه رباح .. فرفع صوته يسأل رباح قائلا :

– يا رباح . إستأذن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها .

وبلغ صوته سمع المصطفى فتأثر . وآذن له فدخل وأجال بصره في الخزانة وبكى ..

قال الرسول :

ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟

فأشار عمر إلى الحصير الذى كان المصطفى مضطجعا عليه وقد أثر في جنبه . وإلى قبضة من شعير ومثلها من قرظ كانتا كل ما بالخزانة من طعام .

ثم أمسك عبرته وقال :

يا رسول الله . ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ..

فابتسم الرسول ورد إليه طمأنينته فما طلق نساءه وإنما هجرهن شهرا لعلهن يرعوين .

وردت الروح إلى عمر فإستأذن الرسول ونزل إلى المسجد يعلن البشرى بأعلى صوته :

" لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه " .

وفرحت جموع المسلمين بالخبر الجميل . وتعالت صيحات التكبير والدعاء للنبى .. فسوف يعود إلى بيته وأهله .. ويعود إلى البيت النبوى هدوءه واستقراره ..

وأنزل الله آيات التحريم :

" يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد

ذلك ظهير عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزوجا خيرا منكـن مسـلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا "

وطارت البشرى إلى نساء النبى بأنه عائد إليهن وأنـه لـم يطلقـهن فاسرعن إلى الأبواب فى إنتظار الحبيب المصطفى وما أن أهل عليـهن حتى أسرعن إليه يرجونه العفو والرضاء عنهن واعلن ندمهن على مـا فعلن وقلن ..

ولكن عائشة وحدها بقدر ما كانت تحرقها نار الفراق والبعـد عـن الحبيب لكنها كانت متماسكة ولم تستطيع أن تخفى دعابتها لرسـول الله وهى تحتويه بعينيها وقلبها قائله

- " بأبى أنت وأمى يا نبى الله ! قلت كلمة لم ألق لها بالا فغضبـت على " .

فأصغى إليها الرسول فقالت له ضاحكة :

- " أقسمت أن تهجرنا شـهرا . ولمـا يمضـى منـه غـير تسـع وعشرين !! " .

وضحك النبى من ملاحظتها الذكية، فقد كان يعرف أن فيـها ذكـاء وسرعة بديهة وخفة ظل حببته فيها . ثم أن هذا يدل علـى مـدى مـا كابدته من شوق إليه جعلها تعد الأيام عدا وتنتظر السـاعات والدقـائق لتنقضى حتى تلتقى بزوجها وحبيبها رسول الله ..

فقال لها ضاحكا :

- إن شهرها هذا تسع وعشرون ليلة .

وتجمع البيت النبوى تحت مظلة الحب من جديد .. وهدأت فصيلـة المشاغبين والتزمن بالحفاظ على الهدوء والسلام داخله .

وخاصة بعد أن ذاقت عائشة مرارة الظلم فى حادث الأفك .. لولا أن من الله عليها بالبراءة .. وعادت إليها كرامتها وهيبتـها وإنسـانيتها .. ومن قبل ذلك كله حب رسول الله لها ..

لم يعد حادث الأفك يستحق كل هذا الحديث الطويل .. فقد كان مجرد حادث صغير فردى من الممكن أن يحدث لأى إنسان فى أى وقت وأى مكان .. لو لا أن العيون كانت ترصدره وترقبه وتنتظره لتصيب رسول الله في زوجة وبيته وشرفه وعرضه .

ولتأخذ منه مدخلا إلى قلعة الأخلاق والفضيلة والمبادئ السامية بيت النبى لتصيب منه هدفا كان يعز الوصول إليه من قبل ..

وكانت العيون التى رصدته ثم اثارته ونشرته هى عيون رأس النفلق عبد الله بن سلول وبقية قومه معه من اليهود الذين يودون لو أن رسول الله يغادر المدينة إلى الأبد أو تتكسر شوكته لكى يعود لهم نفوذهم ومركزهم وسطوتهم على المدينة وأرجائها وكل سكانها ..

فنشط عبد الله بن أبى سلول ونشط اليهود فى نشر الفتنه والأفك فى كل أرجاء المدينة ..

وصدقه بعض ضعاف النفوس من المسلمين فسعوا أيضا إلى إذكائه واشعاله بين معارفهم وأقاربهم حتى باتت المدينة تغلى .. وحكاية عائشة تروى من وراء كل باب ..

وساعد على إنتشارها حسان بن ثابت شاعر الرسول ومسطح بن أثاثه أحد أقارب أبى بكر الصديق وموضع بره كما ساعدت على إنتشار الأفك حمنة بنت جحش ابنه عمة النبى واخت زوجة زينب ..

ولم يعد فى المدينة كلها من حديث إلا عن أم المؤمنين عائشة وصفوان بن المعطل السلمى .

وبلغ الكلام النبى عليه صلاة والسلام . كما بلغ بنت أبى بكر الصديق لكن أحد منهم لم يستطيع أن يواجه به عائشة .. ليس عن خوف منها أو عطفا عليها .. وإنما تقديرا لها وترفعا بها عن هذه الصغائر .. وانها فوق كل شبهة .. ومحل كل ثقة .. وموضع كل احترام .. وهى من قبل ذلك كله إحدى نساء النبى وأحبهن إلى قلبه وهى بنت أعز الناس لديه وأقربهم إلى نفسه وأول من أسلم من الرجال وأول من وقف بجانبه فى وجه كفار مكة .. ورفيقة الذى إختاره له الله ليكون ثانى إثنين إذ هما فى الغار وسنده وعونه عندما هاجر من مكة إلى المدينة فارا بدينه

وأول من ضحى بماله من أجل الدعوة وقدم أولاده فداء لرسوله فكـانت ابنته أسماء ذات النطاقين كما كان يحب أن يناديها رسول الله أول فدائية في الإسلام راعته وساعدته مع شقيقها عبد الله حتى غادرا مكة هاجرا إلى المدينة واخفت كل معلم من معالمها وآثارهما عن كفار مكة عندما تبعوه وعلموا بخروجه مع صديقة أبو بكر ..

فهل يمكن لبنت هذه الشجرة المباركة الطيبة أن تضل وتغوى .

صمت الناس في المدينة .. وحلق من فوقهم الحزن والأسى وطوقهم الألم فلم يستطيعوا فكا كامنه .. وذرفت الأعين دمعا ثخينا وهي ترقب الموقف وتطلعت الرؤوس إلى السماء تناشد الله الرحمة بهم وبرسول الله وبدين الله .. وأن تظهر الحق .. ولتعود البسمة والفرحة إلى المسلمين وتعود إلى المدينة أهازيجها وأيامها ولياليها الجميلة بعد نصرهم على بني المصطلق ..

كان الحادث عاديا ..

فقد خرج النبي على رأس جيشه لغزو بني المصطلق وكعادته أجرى قرعة بين زوجاته لاختيار إحداهن لترافقة الرحلة ووقع الأمر على عائشة ..

ففرحت فرحا شديدا لأنها سوف تظل أياما وليالي إلى جوار حبيبها النبي تخدمه وترعاه .. وسيكون معه وحدها دون غيرها من نسائه .

وإنتصر المسلمون ..

وعاد الجيش الإسلامي ظافرا يغز السير إلى المدينة رافعا لواء النصر ناشرا كلمة التوحيد معززا ومرما مكانه الإسلام والمسلمين في طول الجزيرة*العربية وعرضها

وعلى مسافة قريبة من المدينة عسكر المنتصرون لأخذ قسط من الراحة .. حتى يدخلوا المدينة رافعين هاماتهم وأعلامهم وسط الأهازيج والحفاوة البالغة من أهل المدينة و الذين حالت ظروفهم دون إشتراكهم في الحرب ..

الكل فرح سعيد بإنتصار الإسلام والمسلمين .

وأخذت الحيرة والقلق النبى والمسلمين معه لتأخر بعير عائشة حتى ظهر (صفوان بن المعطل السلمى) يقود بعيرا كانت عليه أم المؤمنين عائشة ..

وحمد الله الجميع .

فقد حقق الله لهم النصر على بنى المصطلق .. وعادت زوجة النبى عائشة بسلام ..

وعاشت المدينة أفراحها بإنتصارها .. وساد الناس هدوء وسعادة ورضاء نفس وراحة بال بما من الله عليهم وصدق وعده لهم بالنصر على عدوهم .. ولكن عائشة لم تكن بداخله .

وروت عائشة سبب تخلفها عن القوم .

قالت :

" خرجت لبعض حاجتى . قبل أن يأذن فى الناس بالرحيل وفى عنقى عقد لى فى جذع " ظفار " فلما فرغت إنسل من عنقى ولا أدرى فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم - وأنا بعيدة - فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه - إذ كنت خفيفة لم يثقلنى اللحم فإحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكوا أنى فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد إنطلق الناس .

فتلففت بجلبابى ، ثم إضطجعت فى مكانى وعرفت أنى لو أفتقدت لرجع لى .

فوالله إنى لمضطجعة ، إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى ، وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف عليه وقد كان يراها قبل ان يضرب عليها الحجاب - فلما رآنى قال :

- إنا لله وإن الله إليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ماخلفك يرحمك الله ؟!

فما كلمته ..

ثم قرب البعير فقال :
- إركبى .
وإستأخر عنى ، فركبت ، وأخذ براس البعير فإنطلق سريعا يطلـــب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما أفتقدت ، حتى أصبحت ونزل الناس وطلع الرجل يقود بى " .
واستمع رسول الله إلى حديثها فصدقها وما أنكر فيه شيئا .
ونام الناس ..
ولكن عيون الفتنة لم تنم وظلت تسعى بالنميمة حتى إشتعلت نـــيران الفتنه .. وتحدثت عن علاقتها مع صفوان .. وأن تأخيرها كان بســبب ذلك .
وسكت النبى .. وسكت المسلمون فى إنتظار فرج الله ..
وشعرت عائشة ببعض جفوة من النبى خاصة وأنها كانت مريضـــة منذ عودتها من غزوة بنى المصطلق وكان من عادته أن يظــل معــها وبجوارها يلاطفها ويداعبها ويدعو لها بالشفاء حتى تقوم من مرقدها ..
لكنه اليوم لا يزيد عن قول :
كيف صحتكم ؟
ثم ينصرف دون زيادة فى القول كعادته .. وشعرت أن فـــى الأمــر شيئا ورات أن تبتعد عن البيت أياما تذهب فيــهم إلــى بيــت أمــهما لإستكمال علاجها ..
فسألت زوجها :
" لو أذنت لى فإنتقلت إلى أمى فمرضتنى ؟."
فلم يزد فى إجابته عن قوله :
" لاعليك "
وتقص عائشة ماحدث :
" فإنتقلت إلى أمى ولا علم لى بشئ مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بعض وعشرين ليلة " .
فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبـــى رهــم بــن المطلب بن عبد مناف - وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بــن

سعد ابن تيم ، خاله أبى بكر - فوالله أنها لتمشى معى إذا عثرت فى مرطها فقالت :
تعس مسطح !!
قلت :
- بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا .
فسالت فى دهشة :
- أوما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر !!
قلت :
- وما الخبر !
قالت :
- نعم والله ، لقد كان ..
فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت فمازلت أبكى حتى ظننت أن البكاء يصدع كبدى وقلت لأمى :
- يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا !
قالت :
أى بنيه ! خففى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها " .
وحزنت عائشة حزنا شديدا .. فهى تعلم مدى ما يعانيه رسول الله وحبيبها فى مواجهة حديث الأفك هذا .. فهى مؤقنة أنه مؤمن ببراءتها وطهارتها .. لكن حديث الأفك يسرى فى المدينة وتلوكه الألسن الحاقدة من اليهود والنفوس الضعيفة من بعض المسلمين ..
والرسول صامت حزين حتى بلغ به الحزن درجة عالية لم يستطيع بعدها ان يستمع إلى مزيد من الأفك وهو يرى قلوب المسلمين من حوله تكاد تنفطر وتنخلع من الصدور حزنا لحزن رسول الله فإعتلى المنبر وصاح فى الناس :

" يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ؟ .. والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي . "

وبكى الناس وهم يستمعون إلى كلمة رسول الله .. وودوا لو يستطيعون شيئا حيال ما ادعاه عبد الله بن أبي بن سلول من أكاذيب مست عائشة ام المؤمنين وزوجة رسول الله ونسجت حكايات وخيال وقصص مريضة عن علاقات بينها وبين صفوان بن المعطل السلمي .. وان حكاية العقد وانفراط حباته ما هي إلا حجة للتأخير عن القوم والأبتعاد عنهم .

لكن حديث الأفك كان يتزايد ..ونار الفتنه تطل براسها .. ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئا .. وقد اخذت كلمات رسول الله بقلوب المسلمين .. فصاحوا مطالبين بالأنتقام منهم ومن كل من ساهم في نشر حديث الافك ..

وتمضي السيدة عائشة تروي ما حدث بعد ذلك من المصطفى فتقول :

- " ونزل رسول الله صلى الله عليهيوسلم فدخل علي ، فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فإستشارهما .

فأما أسامة فأثنى على خيرا وقال ..

- يا رسول أهلك ، ولا نعلم منها إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل ..

وأما علي فإنه يقول :

- يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على ان تستخلف . وسل الجارية فإنها ستصدقك .

" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريتي " بريره " ليسألها فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها شديدا وهو يقول :

- اصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتقول بريرة والله ما أعلم إلا خيراً وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا إني كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه ، فتأتي الشاه فتأكله ."

ويخرج المصطفى حزينا مثقل الرأس والخاطر لما أصاب أحب زوجاته إلى قلبه داعيا الله أن يرفع عنه هذا الهم وهذا الغم وهذا الشرر المتطاير الذى يكاد يحرق كل شئ ..

ثم عاد إلى بيت أبى بكر وعائشة وجلس إليها حزينا يحدثها :

" يا عائشة ، أنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فإتقى الله ، وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبه من عباده .

وانتظرت عائشة من أبويها أن يردا عنها التهمة ويدافعا عنها . لكنهما لم يفعلا .. فقالت لهما :

ألا تجيبان ؟

فقال بصوت تخنقه الدموع :

والله لا ندرى ما نجيب ؟

فاخذتها العزة وانبرت تدافع عن نفسها وشرفها وقالت للرسول :

- " والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله أنى لا اعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم إنى بريئة ، لا أقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى .. ولكن سأقول ما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون " .

وأخذها الصمت والحزن .. ودعت الله أن يظهر براءتها رحمة برسول الله وبالمسلمين وحتى تموت الفتنة فى مهدها وتعود إليهم المودة والرحمة والفرحة بالنصر . واستجاب الله لدعائها ..

فلم يبرح رسول الله مجلسه معها حتى اتاه الوحى يعلن براءتها .. وتلى قولى الله عز وجل :

" إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما إكتسب من الأثم والذى تولى كبره منهم له عذاب أليم لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا أفك مبين لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولو لا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذا تلقونه

بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

ولو لا إذا سمعتمون قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أت تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وأخذت الفرحة أبو بكر وزوجته أم رومان ببراءة ابنتها وعلت تكبيرات الحمد الله والثناء على نبيه المصطفى .. وعمت الفرحة بيت أبى بكر ..

واشارت أم رومان إلى إبنتها عائشة أن تقوم إلى النبى وإلى زوجها الحبيب المصطفى . لكنها قالت في عزة وإباء :

– " والله لا اقدم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل " ، هو الذى أنزل براءتى

ثم نظرت إلى أبيها وهى ترى دموع الفرحة بالبراءة تندى عينيه وقالت له :

– " يا أبتاه هلا كنت عذرتنى !! "

فأجاب :

أى سماء تظللنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟ . "

وتبسم النبى من قول عائشة . وخرج إلى المؤمنين يزف إليهم براءتها ويتلو عليهم آيات القرآن الكريم التى انزلها الله إليه ليؤكد براءتها وطهارتها وعقاب كل من سولت له نفسه إذكاء نار الفتنه وقول الزور .

وتم جلد كل من شارك فى حديث الأفك .

وعادت ام المؤمنين إلى بيتها معززة مكرمة بما أنزل الله فيها من قرآن .. وتزايدت ميلا وطربا وسعادة وثقة بما إختصها الله به من القرآن سيظل أبدا الآبدين يردده المسلمون فى كل مكان حتى يأخذ الله الارض ومن عليها ..

وبدأت من جديد تترفع على ضرائرها بحب رسول الله لها وقوله لها:

" حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى "
وقول عمرو بن العاص عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فأجاب :
" عائشة "
قال عمرو :
انما من الرجال
فأجاب رسول الله :
" أبوها "
وبلغ من حب رسول الله لها أن اتخذ فى غزوة خبير والتى تمت بعد حديث الأفك بعام - رايته من برد لعائشة - كما قال ابن سعد فى الطبقات الكبرى .
واجتمعت زوجات النبى لبحث الأمر بعد أن زاد وفاض وخاصة بعد أن عرف المسلمون ذلك فكانوا يسارعون إلى إرسال الهدايا إليه عندما يكون عند عائشة .. وكان يقوم بتوزيعها على باقى زوجاته بالعدل .
لكن ذلك لم يرضهن وبحثن عن طريقة لوقف ما تقوم به عائشة .. فإلتمسن من إبنته فاطمة الزهراء أن تحدث أبيها فى الأمر .. ودخلت إليه وعائشة عنده وقالت :
" يا أبى ، إن نساءك أرسلننى إليك ، وهن ينشدك العدل فى إبنة أبى بكر بن أبى قحافة . "
فقال لها أبوها : " أى بنية ، أتحبيننى ؟
فقالت من فورها : بلى يا أبى
قال : " فأحبيها "
وعادت فاطمة تخبر نساء النبى بما كان . فطلبن منها أن تعاوده القول لكنها رفضت .. وقررن إختيار غيرها ممن يحب الرسول من نسائه بعد عائشة وهما : زينب بنت جحش أو أم سلمه .
فتحدثتا إلى رسول الله .. حتى قال لهما : " لا تؤذينى فى عائشة "
وهكذا كان يدافع عنها الرسول دائما حتى مع أبوها أبو بكر أعز الناس إليه عندما يعاتب إبنته إذا عرف أنها تغلو على رسول الله .

حتى كانت حجة الوداع وعاد إلى المدينة يشكو صداعا ومر بعائشة فوجدها تشكو هى الأخرى صداعا وتئن متوجعة : " وارأساه !! "

فقال لها وقد أحس المرض : " بلى أنا والله يا عائشة وارأساه ! "

فكررت الشكوى من رأسها .. فقال لها :

- "وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك ، وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟"

فصاحت تبعد الشر عنها وقالت :

- " ليكن ذلك حظ غيرى !! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك."

وضحك النبي من ملاطفتها واستمر فى جولته على نسائه حتى إشتدا عليه المرض فأخذ يسألهن :

- " أين أنا غدا ؟ .. اين أنا غدا ؟

فعلمن مقصده .. وانه يسأل عن يوم عائشة فقلن جميعا :

- " يا رسول الله قد وهبنا أيامنا لعائشة .

وانتقل إلى بيتها وغمرته بحبها وعطفها وحنانها تحاول التخفيف عنه من شدة المرض وقد احست أنها النهاية ..

وعندما جاءت اللحظة الحاسمة ألقى رسول الله صلى عليه وسلم براسه فى حجرها .. فنظرت إلى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول :

- بل الرفيق الأعلى من الجنة .

فقالت فى نفسها :

خيرت فأخترت والذى بعثك بالحق .

تقول السيدة عائشة تصف هذه اللحظة :

- " وقبض رسول الله بين سحرى ونحرى .. فمن سفهى وحداثة سنى انه صلى الله عليه وسلم قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء واضرب وجهى .

" وكادت ان تكون فتنه بين المسلمين بموت رسوله الكريم لو لا أبى بكر عندما قال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . وتلا قول الله عـــز وجــل : " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفـــإن مـــات أو قتـــل إنقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلـــن يضـــر الله شـــيئا . وسيجزى الله الشاكرين " .

ودفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ..

وماتت أم المؤمنين عائشة فى السادسة والستين من عمرها ودفنت فى البقيع بعد ان أثرت الحياة الدينة للمسلمين بفقهها وعلمها حتى قال عنـها الأمام (الزهراى) : لو جمع علم عائشة إلى علم جميـــع أزواج النبـــى صلى الله عليه وسلم ، وعلم جميع النساء ، ، لكان علم عائشة أفضل .

وبموت عائشة رضى الله عنها انتهت رحلـــة المشـــاغبات والغـــيرة والطرائف والمكائد فى بيت النبوة ..

وألغى الموت ما كان بينهن من حواجز .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	(العهد القديم والعهد الجديد)
السيرة النبوية	لابن هشام
تاريخ الأمم والمماليك	لابن جريد الطبرى
الأصابه	لابن حجر
الاستيعاب في معرفة الأصحاب	لابن عبد البر
وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى	لنور الدين السمهودى
نسب قريش	للمصعب الزبيرى
جمهرة أنساب العرب	لابن حزم
السمط الثمين للمحب	للطبرى
الطبقات	لإبن سعد
قصص الأنبياء	لابى الفداء اسماعيل بن كثر
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطئ
حياة محمد	للدكتور محمد حسين هيكل
ابراهيم أبو الأنبياء	لعبد الحميد جوده السحار
بنوة الأنبياء المسمى بالعرائس	لابن اسحاق ابرهيم الثعلبى
الرسول (حياة محمد)	ترجمة . محمد محمد فرج
تاريخ اليهود فى جزيرة العرب	للدكتور إسرائيل ولفنستون
أبو الأنبياء	لعباس محمود العقاد
صحيح البخارى	
حياة محمد رسولا	للمستشرق مرجيلوث

فهرس الكتاب

	الموضوع	الصفحة
	بدلا من الاهداء	٣
	تقديم : آدم وحواء	٥
١-	عنيزة .. عجوز بنى ثمود	١٣
٢-	والهة .. امرأة لوط	٢٧
٣-	رفقة .. امرأة اسحاق	٣٥
٤-	زليخا .. امرأة العزيز	٤٧
٥-	صفورا .. امرأة موسى	٥٧
٦-	رحمة .. امرأة ايوب	٦٧
٧-	امرأة .. بلعام	٧٧
٨-	دليله .. امرأة شمشون	٨٧
٩ -	الياس .. وأم اليسع عليه السلام	١٠٧
١٠ -	سليمان .. وبلقيس .. وجراد	١١٥
١١-	سالومى .. قاتلة يحيي	١٣٥
١٢ -	مريم بنت عمران	١٥٩
١٣-	نساء النبى	١٧٣
١٤-	مصادر الكتاب	٢٠٧
١٥-	فهرس المحتويات	٢٠٩

مكائد النساء

دفعت ظاهرة قتل الزوجات لأزواجهم وتقطيعهم داخل أكياس من البلاستيك مؤلف هذا الكتاب ان يغوص في أعماق كتب السيرة والتاريخ ليعرف ماذا كانت عليه زوجات الأنبياء والرسل باعتبارهن القدوة - أو هكذا يفترض - ألسن زوجات انبياء؟؟!! فطلع علينا بتلك الحكايات القصصية سلسة الأسلوب.. المناسبة لكل القراء على اختلاف مستوياتهم وبيئاتهم.

هذا الكتاب يخلص إلى أن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان، وإن اختلفت زوجات الأنبياء عن الأخريات فهو اختلاف في الشكل مع بقاء المضمون، الغيرة والنكد و«الخناقات» والتسلط والتطاول.. فكلهن دون استثناء يعمدن إلى إثارة نار الغيرة في قلوب ونفوس أزواجهن.

غير ان بعض نساء الأنبياء قد تجاوزن إثارة الغيرة إلى الاضرار وايقاع الضرر بأزواجهن «المعصومين»، ربما لحكمة يعلمها الله. فقد كان المفترض ان تكون زوجة النبي على شاكلة زوجها استقامة وأمانة وصبراً على البلاء وجلداً في مواجهة الشدائد،لكنه سبحانه وضع في بعضهن ضعفاً وقسوة وشططا لسر يعلمه هو وحده. من هؤلاء الأنبياء «بلعام» أحد انبياء بني إسرائيل الذي كانت دعوته مستجابة فحثه قومه على الدعاء على موسى عليه السلام حتى لا يدخل عليهم قريتهم واستغلوا طمع زوجته فأعطوها الذهب والمال حتى تمكنت من إغراء زوجها، فلما هم ودعا على موسى انتزع الله من صدره النبوة واسقط لسانه على صدره عبرة لغيره. و«شمشون» أحد انبياء بني إسرائيل الذي أفشت زوجته سر قوته فتمكن أهلها من القاء القبض عليه. و«لوط» عليه السلام الذي سارعت زوجته إلى أهلها تبثهم خبر الملائكة الذين زاروه ووصفت لهم جمالهم وحلاوتهم، وكان قومها يأتون الرجال شهوة. وزوجة «نوح» عليه السلام التي لم تذهب معه في السفينة فأغرقها الطوفان. حتى سيدنا «محمد» ﷺ.. الذي وجد من نسائه من المكائد الكثير، حتى انه طلق احداهن قبل ان يدخل بها، وامتنع عن زيارة أخرى اخبرته وهو يأكل عندها أن رائحة فمه كريهة، وتآمر بعض نسائه على زوجته ماريا القبطية، ناهيك عن زعيمة فصيلة المشاغبات في بيت النبوة السيدة عائشة رضي الله عنها.. ولها من المكائد الكثير.

إنه كتاب للعامة والخاصة.. للرجال والنساء.. بقلم صحفي قدير يعرف كيف يمسك بتلابيب القارئ فلا يفلته إلا مع السطر الأخير من كتابه..

الناشر